الفصل الرابع

منتخبات من آثار صفى الدين الحلى

١ – صفى الدين الناثر

من رسالة الدار عن محاورات الفار

كتب صفى الدين هذه الرسالة على لسان داره بماردين ، تشكو إلى القلعة الشهباء ، مقر الملك الصالح الأرتقى ، ما أصاب ساكنها من بؤس ، بسبب دين أخذه منه أحد نواب الملك ، ودين آخر أخذه على يده . ومماطله فى دفعهما وردهما . وأنفقهما على مصالح الدولة ! قال فى أولها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . المَمْلُوكَةُ والمَحْرُومَةُ المَرْحُومَة . المُوحِشَةُ بَعْدَ الإيناسِ . دارُ بنِ الدَّكْناسِ .

تُقَبِّلُ الأرضَ بين يَدَىْ القلعةِ الشريفةِ . والذِّرْوَةِ[١] المُنيفَةِ . العزيزةِ الثناءِ . سيدةِ القِلاعِ . ووَاسِطةِ عِقدِ البِقَاعِ[٢] . و إنسانِ عَينِ اليَفَاعِ[٣] . التى قلائدُها النجومُ . ومَطَارفُها[٤] الغُيُومُ . وقِرْطَاهَا الفَرْقَدَانِ[٥] وقُلْبَاهَا السِّماكانِ[٦] . ونِطاقُها الجوْزَاءُ[٧] . وعَجُولُها العَوَّاءُ[٨] . وفَرْقُها المَجَرَّةُ[٩] .

---

(١) الذروة : القمة . المنيفة : العالية المشرفة .

(٢) الواسطة : أوسط حبات العقد .

(٣) اليفاع : واليفع بفتحتين التل .

(٤) المطارف : جمع مطرف بضم الميم وفتح الراء وهو رداء من الخز أى الحرير ، مربع ذو أعلام . ويريد أرديتها وأثوابها .

(٥) القرط : حلية شحمة الأذن ، وهو الشنف . الفرقدان : نجمان .

(٦) قلباها : القلب بضم القاف سوار المرأة – السماكان : بكسر السين نجمان نيران .

(٧) النطاق : شقة تشد بها المرأة وسطها . الجوزاء برج فى السماء .

(٨) العواء : من منازل القمر .

(٩) فرقها : مفرق رأسها – المجرة : بياض وسط السماء كالنهر . وباب السماء .

وَنَثْرُ إِكليلِها الإِكليلُ والنَّثْرَةُ[١] حِصْنُ النُّجَباء . وكهفُ الغُرَباء . وكَعْبَةُ الأُدَباء . القَلْعَةُ الشَّهْبَاء . شَيَّدَ اللهُ مَبَانِيها . وأَيَّدَ سَاكِنِيها . وخَلَّدَ مُلْكَ مالِكِهَا ، الَّذِي ثَبَّتَ أَسَاسَها . وصَانَها وَسَامَها . وَتَوَّجَ رَأْسَها ، وَسَادَها وَرَأَسَها . لا زالت قُودُه[٢] . للأَعْداء قُيُودًا . وصِيدُه[٣] . الملوكِ لها صُيُودا .

الصالحُ المَلِكُ الَّذِي صَلَحت به رُتَبُ الفَخَارِ ولاَحَ طالعُ سَعْدِهِ
مَلِكٌ حَوَى رُتَبَ الفَخَارِ بِسَعْيِهِ والمُلْكَ إِرْثًا عن أبيــه وجدّه

وتُنْهِى أَنَّ المَمْلُوكَةَ . والمَظْلُومَةَ المَضْنُوكَةَ . يُسْكِتُها الْحَياء وَالْأَدَبُ . وَيُنْطِقُها الإِعْياء وَالنَّصَبُ . وشَكْوَى الجَمَادِ إِلَى الجَمَادِ . كَشَكْوَى العِبادِ إِلَى العِبادِ . وَأَنَّ المَعْهُودَ ، مِنْ تَقادِمِ الْعُهُودِ ، أَنَّ اللهَ إِذَا خَصَّ مَخْلوقًا بِنِعَمِهِ ، عَمَّ بِها أَبناءَ جِنْسِهِ . وأشرَكَهُمْ فِيها مَعَ نَفْسِهِ . وأَنْتِ بِحَمْدِ اللهِ ، قَدْ أَصْبَحْتِ أَعْزَزَ ضِياءً مِنَ الشَّمْسِ . وَأَعَزَّ مِنْهَا فِى المَنالِ وَالأَمْسِ . فَأَيَّامُكِ باسِمَةُ الثُّغُورِ . وَبِلادُكِ آمِنَةُ الثُّغُورِ[٤] . يَقْصِدُكِ المادِحُ والحامِدُ . وَيَشْكُرُكِ الرَّائِدُ والْوَارِدُ . وَشَرَفُكِ بِإِتْرَابِكِ[٥] . لا بِتُرَابِكِ . وَشُكْرُكِ لِفَيْضِ نَدَاكِ لاَ لِعُلُوٍّ بِنَاكِ .

شَرَفُ السَّحابِ بِما هَمَى مِنْ وَبْلِهِ لاَ بِالتَّرَفُّعِ فِى عُــلُوِّ مَكانِهِ

---

(١) نثر إكليلها : ما تفرق منه . والإكليل : تاج أو هو شبه عصابة على الرأس تزين بالجوهر ، والإكليل الثانى : منزل للقمر . وهو والنثرة : كوكبان بينهما قدر شبر .

(٢) قوده : خيوله .

(٣) صيد الملوك شجعانها .

(٤) الثغور الأولى : الأفواه ، والثانية المواضع على الحدود ، وموضع المخافة من فروج البلدان وما يلى دار الحرب .

(٥) الإتراب : الغنى . ويعنى أيضاً الفقر ، ضدان .

فَلاَ تَزْوِى[1] عَنِّى جَاهَكِ وأنا مُجاهَكِ . وَلاَ تُظْمِئِينِى مِنْ زُلاَلِكِ وأنا تَحْتَ ظِلاَلِكِ . »

وأخذت الدار بعد ذلك تعرض ظلامتها وتشكو حالتها، وتقص على القلعة قصتها . وتتلخص هذه القصة فى أنها كانت منذ أمد مراحاً للسرور وموطناً للأفراح وموئلا للنعيم، وذلك فى عهد ساكنها الأول. فلما نأى عنها تبدل فرحها حزناً ونعيمها بؤساً وخيرها حرماناً . وأخذت تفكر فى أمر نفسها .

وبينما هى كذلك إذ رأت أفواج الفئران تهرع إلى مطبخها وبينهم جرذ قد وقف بينهم خطيباً وأخذ يرتجل فيهم كلمة حماسية رائعة . يوصيهم جميعاً بالدار وبساكنها الجديد ، ويذكر أطواراً من أطوار حياتها ، ويدعوهم إلى القناعة والترفق بها وبه حتى يعود للدار عهد الأنس من جديد — وكان الساكن الجديد هو صفى الدين . قال الفأر الخطيب بعد حمد الله والصلاة على نبيه الكريم والدعاء لمعاشر الفئران بأن يعيذها الله من المكائد والمصائد ، قال :

« اعْلَمُوا مَعَاشِرَ الفأرِ أَنَّكمْ مِنْ أَكْرَمِ جِيلٍ . وَأَشْرَفِ قَبِيلٍ . خُلِقْتُمْ مِنْ عَفَنِ التُّرَابِ والطِّينِ . وتِلْكَ[2] جِبِلَّةُ آدمَ أَبِى الْعَالَمِينَ . وشارَكْتُمْ بَنِيهِ فِى الدَّارِ . فَلَزِمَهُمْ لَكُمْ حَقُّ الجِوَارِ . أَلاَ وَإِنَّ مُلْكَ القَنَاعَةِ عَقِيمٌ[3] . والْبَغْىُ مَصْرَعُهُ وَخِيمٌ[4] . فَالطَّمَعُ عَذَابُهُ أَلِيمٌ .

وهَذِهِ الدَّارُ المُبَارَكَةُ أَوَّلُ تُرْبَةٍ بَرَّكمْ أَتْرَابُهَا[5] . وأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِسْمَكُمْ تُرَابُهَا . فَلاَ يَكُنْ عَلَى أَيْدِيكُمْ خَرَابُهَا .

أَلاَ وَإِنَّهَا مُنْذُ خَلاَ مَسْكَنُهَا مِنْ سَاكِنِهَا . وَتَمَكَّنَ العَفَاءُ مِنْ أَمَاكِنِهَا . جَعَلْتُمُوهَا نَدْوَةَ نَهَارِكمْ وَلَيْلِكمْ . وَحَلْبَةَ رَجْلِكمْ وخَيْلِكمْ[6] .

---

(١) لا تزوى : لا تبعدنى وتنحى .

(٢) جبلته : طبيعته وخلقته .

(٣) العقيم : الذى لا يلد ، والملك عقيم أى لا ينفع فيه نسب لأنه يقتل فى طلبه الأب والابن والأخ والعم .

(٤) الوخيم : سيء المرعى .

(٥) أترابها : أصحابها جمع ترب بكسر أوله .

(٦) الحلبة : بفتح أوله الدفعة من الخيل ، وخيل تجتمع للسباق من كل أوب ، والمعنى على حذف المضاف أى مكان حلبة رجلكم . . . إلخ والرجل : المشاة — والخيل : يريدها بها الفرسان .

والآنَ ، فَقَدِ انْجابَتْ عَنْها أَيّامُ البُؤُسِ . وَأَفَلَتْ طَوالِعُ النُّحُسِ . وَلَحَظَها الدَّهْرُ بِعَيْنِ الرِّضا ، وقَضَى بِسَعْدِها فَصْلُ القَضا . وتَوَلاَّها نِعْمَ المَوْلَى وابْتَدَرَ لِسُكْناها الصَّفِيُّ الحِلِّي .

وفِي يَوْمِكُمْ هَذَا يُرسلُ إِلَيكُمْ مَنْ يَلُمُّ شَعَثَها. ويُطَهِّرُ خَبَثَها[1] . وَمَتَى رَآكُمْ بِها سارِبِينَ[2] . وَفِي قَرارَتِها رَاسِبِين . كَرِهَ مَغْناها . وَاتَّخَذَ لِنَفْسِهِ سِوَاها . فَعادَ رَبْعُها كالرَّمْسِ[3] . ومَتَى تَقَبَّلَها إِذَا قابَلَها ، أَخْصَبَ رَبْعُها . وتَعَدَّى إِلَيْنا نَفْعُها .

أَلاَ وإِنَّ مَن اسْتَرْشَدَ بِحِكْمَتِي . واتَّبَعَ كَلِمَتِي . أَثْبَتُّهُ فِي أُمَّتِي . وأَتْمَمْتُ عَلَيْهِ نِعْمَتِي » .

« فأَجابَهُ الجَمِيعُ بالسَّمْعِ والطَّاعةِ وقالوا سَنَتَّخِذُ نَفَقاً مِنْ هٰذِهِ السَّاعةِ » .

ثم ساءلوه عن صفات هذا الساكن الجديد أجدير هو بأن يعيد للدار عهد أنسها ؟ فوصفه لهم الفأر الخطيب وطمأنهم من هذه الناحية قائلا عن صفى الدين .

لكنه مع ذلك إكسير الخمور . وينبوع الفجور . قابل بالهناء والهنات ، مولع بالبنين والبنات » . . إلخ

وأخذت الدار بعد ذلك تكمل قصتها للقلعة ، وروت لها أن صدرها انشرح . ذكرت لها أن صفى الدين أرسل إليها خادمين لكنسها ورشها وفرشها . ثم أخذت تصف قدومه إليها وإقامته بها فقالت :

« فُتِحَ البابُ وولَجَ بِهِ أَمْرَدَانِ[4] . كأَنَّهُما الفَرْقَدَانِ[5] . وهُوَ يَتَهادَى

---

(١) يطهر خبثها : ينظف دنسها وقذارتها .

(٢) سارِبين : السارب الذاهب على وجهه فى الأرض . يريد ذاهبين فيها على غير وعى ودون تحفظ .

(٣) الرمس : القبر ويبدو أن هنا سجعة مفقودة .

(٤) الأمرد : الغلام لم ينبت شعر لحيته .

(٥) الفرقدان : نجمان .

فِي مِشْيَتِهِ . ويَمِيسُ بَينَ حَاشِيَتِهِ . وهُوَ يَكادُ أَنْ تَقْطُرَ من أَعْطَافِهِ الخلاعَة . وَتَلْمَعُ مِنْ أَسِرَّةِ وجْهِه . الرَّقاعةُ[1] . فَطافَ الدَّارَ . وهَشَّ لِحسْنِ الآثار . ثم مَشَى وَرُفْقَتُهُ ، حتى جلس بالشُّبَّاكِ الحديد . المشرف على الباب الجديد . فلما استقرَّ به المكانُ . وسرَّحَ طَرْفَهُ فى محاسِنِ البُسْتان . أَبْدَى اعْلامه سَغَباً ولَغَباً[2] . وتَلاَ : « آتِنا غَدَاءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هَذَا نَصَباً »[3] . فَبادَرَتِ الوَلاَئِدُ بالمَوائِد . وسلكوا من الأدبِ أجملَ العوائد . حتى إذا رُفِعَ الطعامُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ . ورُدَّتْ أيديهمْ إليهم . حَمِدُوا اللهَ وشَكَرُوا وطَعِمُوا ولم يَنْتَشِرُوا . بل قال : أَوْلَى ماهُضِمَ به الطعامُ شيءٌ من أرطالِ المُدامِ .[4] :

ما يَهْضِمُ الزَّادَ سِوَى قَهْوَةٍ ... فَقَرِّبُوها نَحْوَنا وَاقْرَبُوا
ولا تَخافُوا الإِثْمَ فِي شُرْبِها ... فاللهُ قد قالَ : كُلُوا واشْرَبُوا !!

فقلتُ : أحسنتَ يادِقنائيلُ ووارثَ علمِ عِزْرَائيلَ . شَدَّ اللهُ عَلَى المعاصِي قُوَاكَ . وأَلْهَمَكَ فُجُورَكَ دُونَ تَقْوَاكَ :

فما اسْتَتَمَّ الكلامَ ، إلاَّ والمُدَامُ تُجْلَى ، والكئوسُ تُمْلَا . فشَرِبُوا أَدْوَارًا . وَتنادَموا أَطْوَارًا . وتناشَدُوا أَشْعاراً . وتَحاوَرُوا أَخْبارًا . فَكانَتْ ساعاتُهُمْ أَحْلَى مِن اسْتِرَاقِ النَّظَرِ عِنْدَ غُفُولِ الرَّقِيبِ . وَأَلَذَّ مِنَ اختلاسِ القُبُلِ عِنْدَ حُضُورِ الحبيبِ وكانَ بمواقعِ اللَّذَّاتِ أعرفَ مِنَ السَّيْلِ بالوِهادِ[5] .

---

(١) الرفاعة : الحمق والزق . والأسرة : محاسن الوجه وتقاطيعه .

(٢) السغب : الجوع — اللغب : التعب .

(٣) هذه آية من القرآن الكريم من سورة الكهف ، اقتبسها . . . والغداء طعام الصباح . والنصب : التعب .

(٤) المدام : الخمر .

(٥) الوهاد : جمع وهد وهو المنخفض من الأرض ضد النجد .

وأَرْوَى لِعاهِدِى مِنْ صَوْبِ العِهادِ (١) .

كلَّ يومٍ لهُ حَبِيبٌ جَدِيدُ يَتَهَنَّى بهِ وَخَمْرٌ عَتِيقُ
بِمُدَامٍ حَكَتْ سُهَيْلَ اتقاداً فى زُجاجٍ كأَنَّهُ العَيُّوقُ (٢)
فِى غَبُوقٍ مِنَ الشُّموعِ صَبوحٍ وصبُوحٍ من الغيومِ غَبُوقُ (٣)
وهُوَ يُبْدِى مِنَ الفُكاهَةِ لُطْفاً كُلُّ لُطْفٍ مِنْ حُسْنِهِ مَسْرُوقُ

ثم جَعَلَ يُرْسِلُ الأَوْرَاقَ . لِيَسْتَدْعِىَ الرِّفقَ . بِأَشْعارٍ لَوْ حاوَلَها ابْنُ المعتزِّ لَعَزَّتْ . وَلَوْ سَمِعَتْها الجبالُ طَرِبَتْ واهتَزَّتْ . وأَقامَ فِى نَعيمٍ مُفاضٍ (٤) وعَيْشٍ فَضْفاضٍ . فَقَصَدَهُ أَعْيانُ الدَّولةِ . وفُرْسانُ الجَوْلةِ . وأَهلُ الصِّلَةِ والصَّوْلةِ . وتَبادَرَهُ أَهلُ العِلْمِ والعَمَلِ . وأَرْبابُ السَّيفِ والقَلَمِ .

مُتَطَلِّعِينَ إلى أَسِرَّةِ وَجْهِهِ مُتَعَطِّشِينَ إلى جَوَاهِرِ لَفْظِهِ
لا يَسْرَحُونَ اللَّحْظَ عِنْدَ حُضُورِه إلاَّ بِحَيْثُ رَمَى مَوَاقِعَ لَحْظِهِ »

وعلى هذا المثال ظلت الدار تحكى وتصف عودة السرور إليها ، حتى عاد الأمر فاضمحل السرور وتخلى النعيم بسبب الدين الذى أخذ نائب الملك ، وما أصاب ساكن الدار من وراء ذلك من نكد وبؤس حتى أصبحت حاله موضوع حديث وجدال من جديد بين فأرتين من فئران الدار صغرى وكبرى . وفى الخاتمة قدمت الدار رجاءها إلى القلعة ضارعة ، أن تعيد إلى ساكنها أمواله . شاكرة لها طائعة .

---

(١) صوب العهاد : العهد أول مطر الوسمى . وصوبه . مزنه وانصبابه .

(٢) سهيل : نجم . — والعيوق : نجم أحمر مضيء فى طرف المجرة الأيمن .

(٣) الغبوق : شراب العشى . والصبوح شراب الصباح . وقد رفع القافية وحقها فى هذا البيت الكسر لأن غبوق هنا صفة . فوقع الشاعر فى الخطأ النحوى . ولعله أراد « هو غبوق » على تقدير مبتدأ محذوف . وهو ما يسمى بالنعت المقطوع .

(٤) مفاض : مسبغ يحيط به ، ويقال أفاض الماء على نفسه أفرغه . والفضفاض الواسع .

٢ ـ صفى الدين الشاعر

إباء وأنفة ورضا وقناعة

نشأ صفى الدين فى قومه . وكانوا ذوى مفاخر ورياسة ، ولهم مطامع ومغامرات ، ووقائع مع أعدائهم وحروب فقال فى ذلك :

لَئِنْ ثَلَمَتْ حَدِّى صُرُوفُ النَّوَائِبِ ... فَقَدْ أَخْلَصَتْ سَبْكِى بنارِ التَّجَارِبِ (١)

وفِى الأَدَبِ الباقِى الَّذِى قَدْ وهَبْتَنِى ... عَزَلامنَ الأَمْوَالِ عَنْ كُلِّ ذَاهِبِ

فَكَمْ غَايَةٍ أَدْرَكْتُهَا غَيْرَ جَاهِدٍ ... وَكَمْ رُتْبَةٍ قَدْ نِلْتُهَا غَيْرَ طَالِبِ

وَمَا كُلُّ وَانٍ فِى الطِّلَابِ بِمُخْطِئٍ ... وَلَا كُلُّ مَاضٍ فِى الأُمُورِ بِصَائِبِ (٢)

سَمَتْ بِى إِلَى العَلْيَاءِ نفسٌ أَبِيَّةٌ ... تَرَى أَقْبَحَ الأَشْيَاءِ أَخْذَ المَوَاهِبِ

بِعَزْمٍ يُرِينِى مَا أَمَامَ مَطَالِبِى ... وَحَزْمٍ يُرِينِى مَا وَرَاءَ العَوَاقِبِ

وَمَا عَابَنِى جَارِى سِوَى أَنَّ حَاجَتِى ... أُكَلِّفُهَا مِنْ دُونِهِ لِلأَجَانِبِ (٣)

وأَنَّ نَوَالِى فِى المُلِمَّاتِ وَاصِلٌ ... أَبَاعِدَ أَهْلِ الحَىِّ قَبْلَ الأَقَارِبِ (٤)

وَلَيسَ حَسُودٌ يَنْشُرُ الفَضْلَ عَائِباً ... وَلَكِنَّهُ مُغْرًى بِعَدِّ المَنَاقِبِ (٥)

وَمَا الجُودُ إِلَّا حِيلَةٌ مُسْتَجَادَةٌ ... إِذَا ظَهَرَتْ أَخْفَتْ وُجُوهَ المَعَائِبِ

لَقَدْ هَذَّبَتْنِى يَقْظَةُ الرَّأْىِ والنُّهَى ... إِذَا هَذَّبَتْ غَيْرِى ضُرُوبُ التَّجَارِبِ

وَأَكْسَبَنِى قَوْمِى وَأَعْيَانُ مَعْشَرِى ... حِفَاظَ المَعَالِى وابتذالَ الرَّغَائِبِ

سَرَاةٌ يُقِرُّ الحَاسِدُونَ بِفَضْلِهِمْ ... كِرَامُ السَّجَايَا والعُلَى وَالمَنَاصِبِ (٦)

---

(١) ثلم : كسر حده . أخلصت سبكى : أجادت تهذيبى . والسبك : الصوغ .

(٢) الوانى : البطىء والماضى الساعى إلى أمله . والصائب : المصيب الذى يصل إلى هدفه .

(٣) فى البيت تأكيد المدح بما يشبه الذم .

(٤) النوال : العطاء .

(٥) المناقب : المحامد والأعمال الجليلة ، جمع منقبة .

(٦) السراة : السادة . والسجايا جمع سجية وهى الطبيعة والخلق .

إذا جَلَسُوا كَانُوا صُدُورَ مَجَالِسٍ ... وَإِنْ رَكِبُوا كَانُوا صُدُورَ مَوَاكِبِ (١)

أسودٌ تَغَانَتْ بِالْقَنَا عَنْ عَرِينِهَا ... وَبِالبِيضِ عَنْ أَنْيَابِهَا والْمَخَالِبِ (٢)

يَجُودُون للرَّاجِي بِكُلِّ نَفِيسَةٍ ... لَدَيْهِمْ سِوى أَعْرَاضِهِمْ وَالْمَنَاقِبِ

إِذَا نَزَلُوا بَطْنَ الوِهَادِ لِغَامِضٍ ... مِنَ القَصْدِ أَذْكَوْا نَارَهُمْ بِالمَنَاكِبِ (٣)

وَإِنْ رَكَزُوا غِبَّ الطِّعَانِ رِمَاحَهُمْ ... رَأَيْتَ رُءُوسَ الأُسْدِ فَوْقَ الثَّعَالِبِ (٤)

فَأَصبحتُ أُغْنِى مَا مَلَكْتُ لِأُقْتَنَى ... بِهِ الشُّكْرَ كَسْباً وَهْوَ أَسْنَى المَكَاسِبِ

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي كَامِلَ النَّفْسِ يَفْتَدِى ... قَلِيلاً مُعَادِيهِ كَثِيرَ المُصَاحِبِ

تحريض وإثارة

لم ين صفى الدين يحرض قومه ويؤلبهم على أعدائهم للأخذ بثأر خاله صفى الدين بن محاسن . ويوجه حديث إثارته إلى خاله جلال الدين بن محاسن ، ويركز همه فيه ويعلق أمله عليه لكى يقود صفوفهم إلى لقاء هؤلاء الأعداء . وها هو ذا — فى مقام التحريض — يفخر بقومه ويحمسهم ويثير نخوة خاله وشهامته بما ينعته به من الأوصاف الجليلة ، وما يعدده له من المواقف النبيلة :

فَكَيفَ وَلَمْ يُنسبْ زَعِيمٌ لِسَنْبَسٍ ... إِلى الْمَجْدِ إِلاَّ كَانَ خَالِيَ أَوْ عَمِّى

وَإِنْ أَشْبَهَتْهُمْ فِى الفَخَارِ خَلاَئِقِى ... وَفِعْلِى فَهَذَا الرَّاحُ مِنْ ذَلِكَ الْكَرْمِ

فَقُلْ لِلْأَعَادِى مَا انْثَنَيْتُ لِسِبِّكُمْ ... وَلاَ طَاشَ فِى ظَنِّى لَقَدْرِكُمُ سَهْمِى

نَظَرْنَا خَطَايَاكُمْ فَأَغْرِيتُمُ بِنَا ... كَذَا مَنْ أَعَانَ الظَّالِمِينَ عَلَى الظُّلْمِ (٥)

---

(١) فى البيت يصفهم بحسن الرأى والشجاعة وأنهم فى ذلك صدور الناس ورؤوسهم .

(٢) تغانت : أصبحت غنية . والقنا : الرماح . والعرين : بيت الأسد . والبيض : السيوف .

(٣) الوهاد : جمع وهد ضد نجد ، وهو الأرض الواطئة . والمناكب جمع منكب بفتح الميم وكسر الكاف ، وهو مجتمع رأس الكتف والعضد — ويريد فى البيت أنهم أسرعوا إلى إشعال الحرب

(٤) غب الطعان : بعد الحرب . والثعالب : جمع ثعلب وهو الحيوان ، أو جمع ثعلبة وهى طرف الرمح ، وقد ورى بالمعنى الأول عن الثانى ، والثانى هو المراد .

(٥) نظرنا : أجلنا معاقبتكم عليها وأخرناها .

أَسَأْتُم فَإِنْ أَسْخَطْ عَلَيْكُمْ فَبِالرِّضَا ... وَإِنْ أُرْضَ عَنْكُمْ مِنْ حَيَائِي فَبِالرَّغْمِ
لَجَأْتُ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ لِحَرْبِكُمْ ... أَشُدُّ بِهِ أَزْرِي وَأُعْلِي بِهِ نَجْمِي (١)
وَظَلْتُ كَأَنِّي أَمْلِكُ الدَّهْرَ عِزَّةً ... فَلَا تَنْزِلُ الْأَيَّامُ إِلَّا عَلَى حُكْمِي
بِأَرْوَعَ مَبْنِيٍّ عَلَى الْفَتْحِ كَفُّهُ ... إِذَا بُنِيَتْ كَفُّ اللَّئِيمِ عَلَى الضَّمِّ (٢)
مَلَاذِي جَلَالُ الدِّينِ نَجْلُ مَحَاسِنٍ ... حَلِيفُ العَفَافِ الطَّلْقِ وَالنَّائِلِ الْجَمِّ
فَتًى خُلِقَتْ كَفَّاهُ لِلْجُودِ وَالسُّطَا ... كَمَا العَيْنُ لِلْإِبْصَارِ وَالْأَنْفُ لِلشَّمِّ (٣)
لَهُ قَلَمٌ فِيهِ الْمَنِيَّةُ وَالْمُنَى ... فَدِيمَتُهُ تَهْمِي وَسَطْوَتُهُ تُصْمِي (٤)
يَرَاعٌ يَرُوعُ الْخَطْبَ فِي حَالَةِ الرِّضَا ... وَيَضْرِمُ نَارَ الْحَرْبِ فِي حَالَةِ السِّلْمِ
وَعَضْبٌ كَأَنَّ الْمَوْتَ عَاهَدَ حَدَّهُ ... وَصَالَ فَأَفْنَى جِرْمُهُ كُلَّ ذِي جُرْمِ (٥)
فَيَا مَنْ رَعَانَا طَرْفُهُ وَهْوَ رَاقِدٌ ... وَقَدْ قَلَّتِ النُّصَّارُ بِالعَزْمِ وَالْحَزْمِ
يَدُ الدَّهْرِ أَلْقَتْنَا إِلَيْكَ فَإِنْ نُطِقْ ... لَهَا مَلْمَسًا أَدْمَى بَرَاجِمَهَا لَثْمِي (٦)
أَطَعْتُكَ جَهْدِي فَاحْتَفِظْ بِي فَإِنَّنِي ... لِنَصْرِكَ لَا يَنْفَلُّ حَدِّي وَلَا عَزْمِي (٧)

---

(١) الأزر : القوة والضعف والظهر .

(٢) الأروع : الشجاع .

(٣) السطا : السطوة . وهى كلمة ذاعت بهذا المعنى فى عصر صفى الدين وبعده .

(٤) الديمة : السحابة الممطرة ، وتصمى : تميت .

(٥) العضب : السيف القاطع . وجرمه بكسر أوله جسمه . وبضم أوله الذنب .

(٦) البراجم : جمع برجمة وهى المفصل الظاهر أو الباطن من الأصبع .

(٧) انفل : تكسر وتثلم . والحد حد السيف ، والشاعر هنا يشبه نفسه به على سبيل الاستعارة المكنية — أ الحد هو البأس والحدة ، فلا استعارة .

انتصار وزهو

أفلح صفى الدين فى تأليب قومه ضد أعدائهم للأخذ بثأر حائه . فقاموا قومة رجل واحد ، وهو معهم فى مقدمة صفوفهم . فأوقعوا بأعدائهم فى واقعة الزوراء ، وأثخنوا فيهم ونالوا منهم كل منال . انتصار باهر ، وثأر وصل ، وكرامة محفوظة موفورة ، وعدو ذليل متخاذل ، فقال :

سَلِي الرِّمَاحَ العَوَالِي عَنْ مَعَالِينَا ... وَاسْتَشْهِدِي البِيضَ هَلْ خَابَ الرَّجَافِينَا[1]

وَسَائِلِي العُرْبَ والأَتْرَاكَ مَا فَعَلَتْ ... فِى أَرْضِ قَبْرِ عُبَيْدِ اللهِ أَيْدِينَا .

لَمَّا سَعَيْنَا فَمَا رَقَّتْ عَزَائِمُنَا ... عَمَّا نُرُومُ وَلاَ خَابَتْ مَسَاعِينَا

يَا يَوْمَ وَقْعَةِ زَوْرَاءِ العِرَاقِ وَقَدْ ... دِنَّا الأَعَادِيَ كَمَا كَانُوا يَدِينُونَا[2]

بِضُمَّرٍ مَا رَبَطْنَاهَا مُسَوَّمَةً ... إِلاَّ لِنَغْزُوَ بِهَا مَنْ بَاتَ يَغْزُونَا[3]

وَفِتْيَةٍ إِنْ نَقُلْ أَصْغَوْا مَسَامِعَهُمْ ... لِقَوْلِنَا أَوْ دَعَوْنَاهُمْ أَجَابُونَا

قَوْمٌ إِذَا اسْتُخْصِمُوا كَانُوا فَرَاعِنَةً ... يَوْمًا وَإِنْ حَكَمُوا كَانُوا مَوَازِينَا[4]

تَدَرَّعُوا العَقْلَ جِلْبَاباً فَإِنْ حَمِيَتْ ... نَارُ الْوَغَى خِلْتَهُمْ فِيهَا مجانينا[5]

إِذَا ادَّعَوا جَاءَتْ الدُّنْيَا مُصَدِّقَةً ... وَإِنْ دَعَوْا قَالَتْ الأَيَّامُ آمِينَا

إِنَّ الزَّرَازِيرَ لَمَّا قَامَ قَائِمُهَا ... تَوَهَّمَتْ أَنَّهَا صَارَتْ شَوَاهِينَا[6]

---

(١) سلى : خطاب لمحبوبته أو ناقته وهو تقليد عن القدماء . — العوالى : جمع عالية وهى أعلى القناة . — البيض : السيوف .

(٢) دان يدين عدوه : إذا ثأر منه وانتقم وأذله وحمله على ما يكره .

(٣) الضمر : الخيل الضامرة البطن المعدة للقتال . والمسومة : المعلمة .

(٤) استخصموا : بالبناء للمفعول دفعوا إلى المخاصمة . وكانوا فراعنة : يعنى ثائرين أشداء . وكانوا موازين : أى عادلين .

(٥) تدرعوا العقل : اتخذوه درعاً يقيهم . يصفهم هنا بحسن العقل والرأى . والوغى : جلبة الحرب . مجانين : كناية عن ثورتهم وعدم هدوئهم حتى ينالوا من أعدائهم .

(٦) الزرازير : جمع زرزور بفتح أوله أو ضمه ، طائر صغير يبدو أنه يصوت . والشواهين من نوع الصقور جمع شاهين .

ظَنَّتْ تأَبِّى البُزَاةِ الشُّهْبِ عَنْ جَزَعٍ ... وَمَا دَرَتْ أَنَّهُ قَدْ كانَ تَهْوِينا[١]

بَيَاذِقٌ ظَفِرَتْ أَيْدِى الرُّخَاخِ بِها ... ولَوْ تَرَكْناهُمُ صَارُوا فَرَازِينا[٢]

ذَلُّوا بِأَسْيافِنا طُولَ الزَّمَانِ فَمُذْ ... تَحَكَّمُوا أَظْهَرُوا أَحْكَامَهُمْ فِينا

لَمْ يُغْنِهِمْ مَالُنا عَنْ نَهْبِ أَنْفُسِنا ... كأَنَّهُمْ فِى أَمَانٍ مِنْ تَقاضِينا[٣]

أَخْلُوا المَسَاجِدَ مِنْ أَشْيَاخِنَا وَبَغَوْا ... حَتَّى حَمَلْنا فَأَخْلَينا الدَّوَاوِينا

ثُمَّ انْثَنَيْنا وَقَدْ ظَلَّتْ صَوَارِمُنا ... تَمِيسُ عُجْباً وَيَهْتَزُّ القَنَا لِينا

وَلِلدِّمَاءِ عَلَى أَثْوَابِنا عَلَقٌ ... بِنَشْرِهِ عَنْ عَبِيرِ المِسْكِ يُغْنِينا[٤]

فَيالَها دَعْوَةً فِى الأَرْضِ سائِرَةً ... قَدْ أَصْبَحَتْ فِى فَمِ الأَيامِ تَلْقِينا

إِنَّا لَقَوْمٌ أَبَتْ أَخلاقُنا شَرَفاً ... أَنْ نَبْتَدِى بِالأَذَى مَنْ لَيْسَ يُؤْذِينا

بِيضٌ صَنَائِعُنا سُودٌ وَقَائِعنا ... خُضْرٌ مَرَابِعنا حُمْرٌ مَوَاضِينا

ثناء وفخار

وفى هذه الأبيات يصور صفى الدين بعض نواحى المعركة ويصف دوره الكبير فى أثنائها :

لِمِنَ الشَّوَاذِبُ كالنَّعَامِ الجُفَّلِ ... كُسِيَتْ جِلالاً مِنْ غُبَارِ القَسْطَلِ[٥]

---

(١) البزاة : جمع باز وهو من صقور الصيد . والشهب : جمع أشهب ، وهو الأبيض يصدعها سواد . عن جزع : بسبب جزعها وخوفها .

(٢) البيذق والرخ والفرزان من أدوات الشطرنج .

(٣) تقاضينا : مطالبتنا بما أخذوا .

(٤) العلق : بفتحتين الدم . والنشر الرائحة .

(٥) الشواذب : يريد الخيل العظيمة والمشذب والشوذب ، الطويل الحسن الخلق . والجفل : جمع جافل كنائم ونوم . وجفلت النعام أسرعت وجفلتها الريح حركتها . والجلال : بكسر الجيم جمع جل بفتح الجيم وضمها ما تلبسه الدابة لتصان به . والقسطل : الغبار وما يثيره الجيش من تراب أثناء زحفه أو حربه ، وقد أضاف الشيء إلى نفسه تقريراً له .

يَبْرُزْنَ فِي حُلَلِ العَجَاجِ عَرَائِساً ... يَحْمِلْنَ كُلَّ مُدَرَّعٍ ومُسَرْبَلِ (١)

شِبْهُ العرائسِ تَنْجَلِي فَكَأَنَّهَا ... فِي الخِدْرِ مِنْ ذَيلِ العَجَاجِ المُسْبَلِ (٢)

فَعَلَتْ قَوَائِمُهُنَّ عِنْدَ طِرَادِهَا ... فِعْلَ الصَّوالجِ فِي كُرَاتِ الجَنْدَلِ (٣)

فَتَظَلُّ تَرْقُمُ فِي الصُّخُورِ أَهِلَّةً ... بِشَبَا حَوَافِرِهَا وَإِنْ لَمْ تُنْعَلِ (٤)

يَحْمِلْنَ مِنْ آلِ العَرِيضِ فَوَارِساً ... كَالْأُسْدِ فِي أَجَمِ الرِّمَاحِ الذُّبَّلِ (٥)

تَنْشَالُ حَوْلَ مُدَرَّعٍ بِجَنَانِهِ ... فَكَأَنَّهُ مِنْ بَأْسِهِ فِي مَعْقِلِ (٦)

مَازَالَ صدْرَ الدَّسْتِ صَدْرَ الرتبةِ الـ ... ـعَلْيَاءِ صَدْرَ الجَيْشِ صَدْرَ المَحْفِلِ (٧)

لَوْ أَنْصَفَتْهُ بَنُو مَحَاسِنَ إِذْ مَشَوْا ... كَانَتْ رُءُوسُهُمُ مَكَانَ الأَرْجُلِ

بَيْنَا تَرَاهُ خَطِيبَهُمْ فِي مَحْفِلٍ ... رَحْبٍ تَرَاهُ زَعِيمَهُمْ فِي جَحْفَلِ (٨)

شَاطَرْتُهُ حَرْبَ العِدَاةِ لِعِلْمِهِ ... أَنِّي كِنَانَتُهُ التي لم تُنْشَلِ (٩)

لَمَّا دَعَتْنِي لِلنِّزَالِ أَقَارِبِي ... لَبَّاهُمُ عَنِّي لِسَانُ المُنْصُلِ (١٠)

وَأَبَيْتُ مِنْ أَنِّي أَعِيشُ بِعَزْمِهِمْ ... وَأَكُونُ عَنْهُمْ فِي الحُرُوبِ بِمَعْزِلِ

---

(١) العجاج : الغبار. والمدرع لابس الدرع . والمسربل لابس السربال وهو القميص أو الدرع أيضاً .

(٢) المسبل : المرخى المسدل .

(٣) قوائمها : أرجلها مفردها قائمة . والطراد : مطاردتها بعضو . والصوالج : جمع صولجان وهو مضرب الكرة وهو المحجن . والجندل الصخر .

(٤) الشبا : الطرف .

(٥) الذبل : اليابسة التى لصق بها ليعلها أى قشرها .

(٦) تنشال : شالت الدابة بذنبها رفعته .

(٧) الدست : المجلس ومرتبة السلطان ، وهنا كناية عن التقدم .

(٨) المحفل الجيش العظيم .

(٩) الكنانة : جعبة السهام وكيسها . لم تنشل : لم تخرج سهامها فتفرغ .

(١٠) المنصل بضمتين : السيف

وَافَيْتُ فِي يَوْمٍ أَغَرَّ مُحَجَّلٍ أَغْشَى الهَيَاجَ عَلَى أَغَرَّ مُحَجَّلِ (١)
ثَارَ العَجَاجُ فَكُنْتُ أَوَّلَ صَائِلٍ لاَ خَيْرَ فِيمَنْ قَالَ إِنْ لَمْ يَفْعَلِ
سَلْ سَاكِنَ الزَّوْرَاءِ والأُمَمَ الَّتِي حَضَرَتْ وَظَلَّلَهَا رِوَاقُ القَسْطَلِ (٢)
مَنْ كَانَ تَمَّمَ نَقْصَهَا بِحُسَامِهِ إِذْ كُلُّ شَاكٍ فِي السِّلاَحِ كَأَعْزَلِ
أَوْ مَنْ تَدَرَّعَ بِالعَجَاجَةِ عِنْدَمَا نَادَى مُنَادِي القَوْمِ يَاخَيْلُ احْمِلِي (٣)
تُخْبِرْكَ فِرْسَانُ العريكةِ أَنَّنِي كُنتُ المُصَلِّي بَعْدَ سَبْقِ الأَوَّلِ (٤)
مَا كَانَ يَنْفَعُ مَنْ تقدَّمَ سَبْقُهُ لَوْلَم تُتَمِّمْهَا مَضَارِبُ مُنْصُلِي (٥)

اعتذار عن فرار

مضت أيام الانتصار وتقطعت أسباب الغلبة . وقلب الدهر لصفى الدين وقومه ظهر المجن ، فقد رجحت كفة أعدائهم عليهم ، وآلت إليهم الولاية فى بلدهم فما عتم صفى الدين أن ركب مركب الحزم ، ولاذ بالفرار ، وألقى عصا التسيار بماردين ثم كتب إلى أحد بنى عمه يقول :

صَبْراً عَلَى وَعْدِ الزَّمَانِ وَإِنْ وَنَى فَعَسَاهُ يُصْبِحُ تَائِباً مِمَّا جَنَى
لاَ يُجْزِعَنَّكَ أَنَّهُ رَفَعَ العِدَى فَلَسَوْفَ يَهْدِمُ عَنْ قَلِيلٍ مَا بَنَى
حَكَمُوا فَجَارُوا فِي القَضَاءِ وَمَا دَرَوْا أَنَّ المَرَاتِبَ تَسْتَحِيلُ إِلَى فَنَا (٦)

---

(١) الأغر من الدواب الذى فى جبهته بياض . والمحجل الذى فى قوائمه بياض . وتشبه بهما الأيام فى الشهرة .

(٢) الرواق : بكسر الراء وضمها مقدم البيت ، والشجاع لا يطاق . والقسطاط أى الخيمة وهذا هو المراد هنا ، يشبه الغبار — أى القسطل — فى انتشاره حولهم بالفسطاط المضروب . أضاف المشبه به للمشبه .

(٣) العجاجة : سحابة الغبار . وفى البيت تضمين لطيف بتصرف فى قوله : « يا خيل احملى » للحديث الشريف « يا خيل الله اركبى » .

(٤) المصلى : من الخيل ما يجىء الثانى فى السباق بعد المجلى .

(٥) قوله تتمها : ضمير المفعول فيها يعود على ضربات من تقدمه والمنصل السيف .

(٦) فنا : مقصور من الفناء بمعنى الزوال . وهو ضرورة شعرية .

ظَنُّوا الوِلاَيَةَ أَنْ تَدُومَ عَلَيْهِمُ ... هَيْهاتَ لَوْ دَامَتْ لَهُمْ دَامَتْ لنَا
قَتَلُوا رِجَالِي بَعْدَ أَنْ فَتَكُوا بِهِمْ ... فِي وَقْعَةِ الزَّوْرَاءِ فَتْكاً بَيِّنَا[1]
كُلُّ الَّذِينَ غَشُوا الوَقِيعَةَ قُتِّلُوا ... مَا فَازَ مِنْهُمْ سَالِماً إِلاَّ أَنَا
لَيْسَ الفِرارُ عَلَيَّ عَاراً بَعْدَمَا ... شَهِدُوا بِبَأْسِي يَوْمَ مُشْتَبَكِ القَنَا[2]
إِنْ كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ نَأَى عَنْ أَرْضِهِمْ ... قَدْ كُنْتُ يَوْمَ الْحَرْبِ أَوَّلَ مَنْ دَنَا
أَبْعَدْتُ عَنْ أَرْضِ العِرَاقِ رَكَائِبِي ... عِلْماً بِأَنَّ الْحَزْمَ نِعْمَ الْمُقْتَنَى
لاَ أَخْتَشِي مِنْ ذِلَّةٍ أَوْ قِلَّةٍ ... عِزِّي لِسَانِي والقناعةُ لِي غِنَى
جُبْتُ البلادَ وَلَسْتُ مُتَّخِذاً بِها ... سَكَناً وَلَمْ أَرْضَ الثُّرَيَّا مَسْكَنَا
حَتَّى أَنَخْتُ بِمارِدِينَ مَطِيَّتِي ... فَهُنَاكَ قَالَ لِيَ الزَّمَانُ لَكَ الْهَنَا
فِي ظِلِّ مَلْكٍ مُذْ حَلَلْتُ بِرَبْعِهِ ... أَمْسَى لِسَانُ الدَّهْرِ عَنِّي أَلْكَنَا
نَظَرَ الْخطُوبَ وَقَدْ قَسَوْنَ فَلاَنَ لِي ... وَرَأَى الزَّمَانَ وَقَدْ أَسَاءَ فَأَحْسَنَا

بكاء ورثاء

وكان لابد لصفى الدين – بعد أن كان قد بكى خاله صفى الدين من قبل – أن يبكى اليوم خاله جلال الدين ويبكى دمه المطلول :

سَفَهاً إِذَا شُقَّتْ عَلَيْكَ جُيُوبُ ... إِن لَمْ تُشَقَّ مَرَائِرٌ وَقُلُوبُ[3]
وَتَمَلُّقاً سَكْبُ الدُّمُوعِ عَلَى الثَّرَى ... إِنْ لَمْ يُمَازِجْهَا الدَّمُ الْمَسْكُوبُ

---

(١) الضمير فى فتكوا يعود على قوله : رجالى .

(٢) مشتبك القنا : اشتباك الرماح . ومشتبك مصدر ميمى من اشتبك .

(٣) السفه : الحمق والجهل . وقد وقع مفعولا مطلقاً لمحذوف تقديرة تسفه – والجيوب : جمع جيب وهو طوق القميص . والمرائر : جمع مرارة وهى هنة شبه كيس لازم بالكبد تكون فيها مادة صفراء والمراد بها هنا النفوس .

يا حمزةُ الثَّـــانى الَّذِى كَادَتْ لَهُ ... صُمُّ الجِبَالِ الرَّاسياتِ تَذُوبُ(١)

إنْ ضَاعَ تَأْرُكَ بَيْنَ آلِ مَحَاسِنٍ ... تلك المحاسِنُ كُلُّهُنَّ عُيُوب

لَمْ أَبْكِ بالْحُزْنِ الطَّوِيلِ تَمَلُّقاً ... حُزْنى عَلَيْكَ وَقَائِعٌ وحُرُوبُ

فَلأَبْكِيَنَّكَ بالصَّـــوَارِمِ والْقَنَا ... حَتَّى يُحَطَّمَ ذَابلٌ وقَضِيبُ(٢)

لاَ يَأْمَنَنَّ بَنُو أَبِى الفَضْلِ الْبَقَا ... إنَّ الفَنَاءَ إليْهِـــمُ لَقَرِيبُ

وَوَرَاءَهُمْ مِنْ آلِ سَنْبَسَ عُصْبَةٌ ... مُرْدٌ وشُبَّانٌ تُهَـــابُ وشيبُ

قَوْمٌ إذَا غَضِبُوا عَلَى صَرْفِ القَضَا ... جَاءَ الزَّمَانُ مِنَ الذُّنُوبِ يَتُوبُ

وَإذَا دُعُوا يَوْماً لِدَفْعِ مُلِمَّةٍ ... بَسَمُوا وَفِى وَجْهِ الزَّمَانِ قُطُوبُ

إنْ خُوطِبُوا فَحَدِيثُهُمْ وخِطَابُهُمْ ... يَوْمَ الجِلاَدِ حَوَادِثٌ وَخُطُوبُ

فَلْيَبْكِيَنَّكَ طَرْفُ كُلِّ مُثَقَّفٍ ... يُزْهَى بِحَمْلِ سِنَانِهِ الأُنْبُوبُ(٣)

يَبْكِيكَ فِى يَوْمِ الهَيَاجِ وَأَعْيُنٌ ... خُزْرٌ مَدَامِعُهَا الدَّمُ المَصْبُوبُ(٤)

والصبحُ لَيْلٌ بالعَجَاجِ وَقَدْ بَدَا ... بالبِيضِ فى فَوْدِ العَجَاجِ مَشِيبُ(٥)

وَلَقَدْ رَضِيتَ بِأَنْ تَعِيشَ مُنَزَّهاً ... لاَ غَاصِباً فيها ولاَ مَغْصُوبُ(٦)

فِى مَنْصَبٍ لِلّهِ فيـــهِ طَاعَةٌ ... تُرْضَى وَلِلفُقَرَاءِ فيـــه نَصِيبُ

---

(١) فى البيت يشبه خاله بحمزة الشهيد عم الرسول عليه السلام . والجبال الصم الصلبة القوية .

(٢) الصوارم : جمع صارم وهو السيف . والقنا جمع قناة وهى الرماح . والذابل الرمح اليابس . والقضيب : السيف القطاع كالقاضب .

(٣) المثقف الرمح الذى هذبه الثقاف وقومه . السنان حديدة الرمح التى يطعن بها . والأنبوب : كعب الرمح

(٤) العيون الخزر : الضيقة الصغيرة . والمدامع أماكن نزول الدمع .

(٥) العجاج : الغبار أى صار الصبح كالليل لشدة ما ثار فيه من غبار الحرب . والفود : ما بين العين والأذن . وفى البيت تصوير لطيف للسيوف البيضاء إذ بدت مشيباً فى فود العجاج الأسود.

(٦) قوله مغصوب حقه النصب عطفاً على لا غاصباً . ويبدو أن الشاعر قد ر مبتدأ محذوفاً وهو : ولا أنت مغصوب .

سَتُثِيرُ ثَأْرَكَ يا ابنَ حَمْزَةَ عُصْبَةٌ ... شُمُّ الأُنُوفِ إلى القِرَاعِ تَثُوبُ(١)

نُجَبَاءُ مِنْ آلِ العَرِيضِ إذا سَطَوْا ... يَوْمًا أَفَادُوا الدَّهْرَ كَيْفَ يَنُوبُ

سَمِعَتْ بِمَصْرَعِكَ البِلَادُ فَأَرْجَفَتْ ... وَتَوَاتَرَ التَّصْدِيقُ والتَّكْذِيبُ(٢)

وَبَكَى لِرُزْئِكَ صَعْبُهَا وذَلُولُهَا ... وَشَكَا لِفَقْدِكَ شَاتُهَا والذِّيبُ(٣)

فُجِعَتْ بِكَ الدُّنْيَا فَلاَ وَجْهُ العُلَى ... طَلْقٌ وَلاَ صَدْرُ الزَّمَانُ رَحِيبُ

إذْ أَنْتَ فِي يَوْمِ الجِلاَدِ عَلَى العِدَى ... خَطْبٌ وَفِي يَوْمِ الجِدَالِ خَطِيبُ

يَا شَمْسَ أُفْقٍ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِهَا ... لِلشَّمْسِ فِي طَيِّ الصَّعِيدِ غُرُوبُ

إنْ غُيِّبَتْ تِلْكَ المَحَاسِنُ فِي الثَّرَى ... فَجَمِيلُ ذِكْرِكَ فِي البِلاَدِ يَجُوبُ

حُزْتَ المَحَامِدَ والمَكَارِمَ مَيِّتًا ... فَغَدًا لَكَ التَّأْبِينُ لا التَّأْنِيبُ

فَابْشِرْ فَإِنَّكَ بِالثَّنَاءِ مُخَلَّدٌ ... مَا غَابَ إِلَّا شَخْصُكَ المَحْجُوبُ(٤)

حَيَّا الحَيَا جَدَثًا حَلَلْتَ بِتُرْبِهِ ... حَتَّى تَعَطَّرَ نَشْرُهُ فَيَطِيبُ

لاَ زَالَ تَبْكِيهِ عُيُونُ سَحَائِبٍ ... لِلْبَرْقِ فِي حَافَاتِهِنَّ لَهِيبُ

تَهْمِي عَلَيْهِ لِلسَّحَابِ مَدَامِعٌ ... فَتَشُقُّ فِيهِ لِلشَّقِيقِ جُيُوبُ(٥)

---

(١) شم الأنوف : أباة لا يقبلون الذل وهى كناية . والقراع : القتال والمصارعة .

(٢) أرجفت : زلزلت واضطربت . وتواتر توالى وتتابع .

(٣) الرزء : المصاب الفادح . والذلول ضد الصعب . وربما كان يريد خيولها بأنواعها لأنه كان يقودها للحرب . وقوله : شاتها والذيب لأنه كان ميزاناً بينهما عادلا .

(٤) قوله : فابشر سهل الهمزة لضرورة الشعر .

(٥) الشقيق : نبات ذو زهر أحمر ، أو هو شقيق للمتوفى .

لقاء وثناء

ويتقدم صفى الدين حين قدومه إلى ماردين ، نحو ساحة الملك المنصور نجم الدين الأرتقى ، فيتلقاه هذا بالترحاب . ويخصب له من جنابه ويوطئ له من كنفه ، فلا يجد صفى الدين له جزاء سوى الثناء عليه ينظمه عقداً من القريض . ذلك الذى كان قد آلى على نفسه من قبل ، ألا يبتذله بمدح كريم وإن جل ، أو هجاء لئيم وإن ذل . ولكن النفس النبيلة تشكر الجميل ولا تكفره ، وتعترف بالفضل ولا تنكره ، قال :

إِنْ لَمْ أَزُرْ رَبْعَكُمْ سَعْياً عَلَى الْحَدَقِ ... فَإِنَّ وُدِّيَ مَنْسُوبٌ إِلَى الْمَلَقِ (١)

تَبَّتْ يَدِي إِنْ ثَنَتْنِي عَنْ زِيَارَتِكُمْ ... بِيضُ الصَّفَاحِ وَلَوْ سُدَّتْ بِهَا طُرُقِي (٢)

يَا جِيرَةَ الْحَيِّ هَلاَّ عَادَ وَصْلُكُمُ ... لِمُدْنَفٍ مِنْ خُمَارِ الْوَجْدِ لَمْ يُفِقِ (٣)

لاَ تُنْكِرُوا فَرَقِي مِنْ بَعْدِ بُعْدِكُمُ ... إِنَّ الْفِرَاقَ لَمُشْتَقٌّ مِنَ الْفَرَقِ (٤)

لِلّٰهِ لَيْلَتُنَا بِالْقَصْرِ كَمْ قَصُرَتْ ... فَظَلْتُ مُصْطَبِحاً فِي زِيٍّ مُغْتَبِقِ (٥)

فَكَمْ خَرَقْنَا حِجَاباً لِلْعِتَابِ بِهَا ... وَلِلْعِفَافِ حِجَابٌ غَيْرُ مُنْخَرِقِ

وَالصُّبْحُ قَدْ أَخْلَقَتْ ثَوْبَ الدُّجَى يَدُهُ ... وَلَيْتَهُ جَادَ لِلْعُشَّاقِ بِالْخَلَقِ (٦)

أَبْلَى الظَّلاَمَ وَمَاذَا لَوْ يَجُودُ بِهِ ... عَلَى جُفُونٍ لِطِيبِ الْغَمْضِ لَمْ تَذُقِ

مَا أَحْسَنَ الصُّبْحَ لَوْلاَ قُبْحُ سُرْعَتِهِ ... وَأَعْذَبَ اللَّيْلَ لَوْلاَ كَثْرَةُ الأَرَقِ

---

(١) الربع : المنزل . والحدق : جمع حدقة وهى سواد العين ، ويريد بها العين . والملق : المراءاة .

(٢) تبت : قطعت . بيض الصفاح : السيوف . وصفاحها وجوهها وجوانبها جمع صفح .

(٣) المدنف : عليل الهوى . والخمار : دوار يصيب شارب الخمر .

(٤) الفرق : بفتحتين الخوف .

(٥) قوله لله . ضرب من التعجب . والمصطبح شارب الصبوح خمر الصباح ، والمغتبق شارب الغبوق خمر العشى .

(٦) أخلقته ؛ أبلته وقطعته .

هَبَّ النَّسِيمُ عِرَاقِيًّا فَشَوَّقَنِي ... وَطَالَمَا هَبَّ نَجْدِيًّا فَلَمْ يَشُقِ

فَمَا تَنَفَّسْتُ وَالْأَرْوَاحُ سَارِيَةٌ ... إِلَّا اشْتَكَتْ نَسَمَاتُ الرِّيحِ مِنْ حُرَقِ (١)

ذَرْ أَيُّهَا الصَّبُّ تَذْكَارَ الدِّيَارِ إِذَا ... مُتِّعْتَ فِيهَا بِعَيْشٍ غَيْرِ مُنَّسِقِ

فَكَمْ ضَمَمْتَ وُشَاحًا بِالظَّلَامِ بِهَا ... مَا زَادَ قَلْبَكَ إِلَّا كَثْرَةَ القَلَقِ (٢)

فَخَلِّ تَذْكَارَ زَوْرَاءِ العِرَاقِ إِذَا ... جَاءَتْ نَسِيمُ الصَّبَا بِالمَنْدَلِ العَبِقِ (٣)

فَهَذِهِ شُهُبُ الشَّهْبَاءِ سَاطِعَةٌ ... وَهَذِهِ نَسْمَةُ الفِرْدَوْسِ فَانْتَشِقِ (٤)

فَتِلْكَ أَفْلَاكُ سَعْدٍ لَا يَلُوذُ بِهَا ... مِنْ مَارِدٍ إِخَفِيِّ السَّمْعِ مُسْتَرِقِ

سَمَاءُ مَجْدٍ بَدَا فِيهَا فَزَيَّنَهَا ... نَجْمٌ تَخِرُّ لَدَيْهِ أَنْجُمُ الأُفُقِ

مَلْكٌ غَدَا الجُودُ جُزْءًا مِنْ أَنَامِلِهِ ... فَلَوْ تَكَلَّفَ تَرْكَ الجُودِ لَمْ يُطِقِ

أَعَادَ لَيْلَ الوَرَى صُبْحًا وَكَمْ رَكَضَتْ ... جِيَادُهُ فَأَرَتْنَا الصُّبْحَ كَالغَسَقِ

مُشَتَّتُ العَزْمِ وَالأَمْوَالِ مَا تَرَكَتْ ... يَدَاهُ لِلْمَالِ شَمْلًا غَيْرَ مُفْتَرِقِ

إِذَا رَأَى مَالَهُ قَالَتْ خَزَائِنُهُ ... أَفْدِيكَ مِنْ وَلَدٍ بِالثُّكْلِ مُلْتَحِقِ

لَوْلَا أَبُو الفَتْحِ نَجْمُ الدِّينِ مَا فُتِحَتْ ... أَبْوَابُ رِزْقٍ عَلَيْهَا اللَّوْمُ كَالغَلَقِ (٥)

مَلْكٌ بِهِ اكْتَسَتِ الأَيَّامُ ثَوْبَ بَهًا ... مِثْلَ اكْتِسَاءِ غُصُونِ البَانِ بِالوَرَقِ (٦)

تَهْوَى الحُرُوبَ مَوَاضِيهِ فَإِنْ ذُكِرَتْ ... حَنَّتْ فَلَمْ تَرَ فِيهَا غَيْرَ مُنْدَلِقِ (٧)

---

(١) الأرواح : الرياح .

(٢) الوشاح : ما تتشح به المرأة فتغطى بين عاتقيها وكاشحيها أى تلف به ظهرها إلى وسطها .

(٣) المندل : عود طيب الرائحة . والعبق : اللاصق الذى لا تذهب رائحته أياماً .

(٤) الشهباء : قلعة الملك بماردين . وشبهها رجالها وأهلها ، والشهب النجوم .

(٥) الغلق : بفتحتين المغلاق وهو ما يغلق به الباب .

(٦) ثوب بها : أى ثوب بهاء قصره للضرورة .

(٧) مواضيه : سيوفه . والمندلق : السيف الخارج من غمده ينسل منه من غير أن يسله إنسان .

حَتَّى إذا جُرِّدَتْ فى الرَّوْعِ أَغْمَدَهَا ... فِى كُلِّ سَابِغَةٍ مَسْرُودَةِ الحَلَقِ (١)

يأَيُّها الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ طَائِرُهُ ... وَمَنْ أَيَادِيهِ كَالأَطْوَاقِ فى عُنُقِ (٢)

أَحْيَيْتَ بالجُودِ آثارَ الكِرامِ وَقَدْ ... كانَ النَّدَى بَعْدَهُم فى آخِرِ الرَّمَقِ (٣)

لَوْ أَشْبَهَتْكَ بِحارُ الأَرْضِ فى كَرَمٍ ... لأَصْبَحَ الدُّرُّ مَطْرُوحاً عَلَى الطُّرُقِ

لَوْ أَشْبَهَ الْغَيْثُ جُوداً مِنْكَ مُنْهَمِراً ... لَمْ يَنْجُ فى الأَرْضِ مَخْلُوقٌ مِنَ الغَرَقِ . إلخ.

أرتقية

وإليك أبيات إحدى أرتقياته ، وهى الكافية . فإنها رقيقة القافية عذبة الديباجة طلية المعانى غزلية الألفاظ. وهى فى جملتها نموذج لغيرها من الأرتقيات فى غرضها الرئيسى وأغراضها العارضة، كالغزل أو وصف الخمر . وفى التزام اتفاق حروف أبياتها الأولى ، وتوافقها مع حرف الروى . إلى غير ذلك . وغزل هذه الأرتقية يذكرنا بغزليات ابن هانئ .

كُفِّى القِتالَ وَفُكِّى قَيْدَ أَسْرَاكِ ... يَكْفِيكِ مَا فَعَلَتْ بالنَّاسِ عَيْنَاكِ

كَلَّتْ لِحَاظُكِ مِمَّا قَدْ فَتَكْتِ بِنَا ... فَمَنْ تُرَى فِى دَمِ العُشَّاقِ أَفْتَاكِ (٤)

كَفَاكِ ما أَنْتِ بالعُشَّاقِ فاعِلَةٌ ... لَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ فى العُشَّاقِ عَزَّاكِ

كَمُلْتِ أَوْصافَ حُسْنٍ غَيْرَ ناقِصَةٍ ... لَوْ أَنَّ حُسْنَكِ مَقْرُونٌ بِحُسْنَاكِ

كَيْفَ انْتَهَيْتِ إلى الأَعْدَاءِ كاشِفَةً ... غَوَامِضَ السِّرِّ أَمَّا اسْتَنْطَقُوا فاكِ

كَتَمْتُ سِرَّكِ حَتَّى قالَ فِيكِ فَمِى ... شِعْرًا ولَمْ يَدْرِ أَنَّ القَلْبَ يَهْوَاكِ

---

(١) الروع : القتال . والسابغة الدرع . والمسرودة : المنسوجة المحكمة .

(٢) الطائر : الحظ . والأيادى : النعم والأفضال .

(٣) الرمق : بقية الحياة .

(٤) كلت : ضعفت . واللحاظ سمة تحت العين ، ويريد هنا العين . وما قد فتكت : بسبب فتكك . وهو تعليل لضعفها طريف .

كِدْتِ المُحِبَّ فَمَاذا أنتِ طالبةٌ ... فَنا مُحِبُّكِ مَعْ إشْماتِ أعْدَاكِ (١)

كافَيْتِنِي بِذُنُوبٍ لَسْتُ أعْرِفُها ... فَسامِحِي واذْكُرِي مَنْ لَيْسَ يَسْلاكِ (٢)

كَلَّفْتِنِي حَمْلَ أثْقالٍ عَجَزْتُ بِها ... وَحَبَّذَا ثِقْلُها إنْ كانَ أرْضاكِ

كابَدْتُ هَوْلَ السُّرَى فِي البِيدِ مُكْتَسِباً ... مالاً وما كُنْتُ أبْغِي المَالَ لَوْلاكِ (٣)

كلاَّ ولاَ بِتُّ أطْوِي كُلَّ مُقْفِرَةٍ ... ومَهْمَهٍ لَمْ تَسِرْ فِيهِ مَطَايَاكِ (٤)

كَأنَّ فِيهِ السَّمَا والأرضَ واحِدَةٌ ... وَنُوقُنا نُجُبُ نُورٍ تَحْتَ أمْلاكِ (٥)

كَبَتْ مِنَ الأيْنِ فِيهِ ناقَتِي فَغَدَتْ ... تَشْكُو إلَيَّ بِطَرْفٍ شاخِصٍ باكِ (٦)

كَوْماءُ تَسْحَبُ مِنْ سُقْمٍ مَناسِمَها ... كَأنَّ أرْجُلَها شُدَّتْ بِأشْرَاكِ (٧)

كَفَّتْ عَنِ السَّيرِ لِلْمَرْعَى مُحاوِلَةً ... فَقُلْتُ سِيرِي إلَى مَرْعَى النَّدَى الزَّاكِي

كَرَّتْ وقالَتْ إلَى مَنْ ذا فَقُلْتُ لَها ... إلَى أبِي الفَتْحِ مَوْلانا ومَوْلاكِ

كَهْفِ الضُّيُوفِ ووَهَّابِ الأُلُوفِ وجَدَّ ... اعِ الأُنُوفِ وأَمْنِ الخَائِفِ الشَّاكِي (٨)

كَرِيمِ أصْلٍ يُعِيدُ الرُّوحَ منظَرُهُ ... فَلَوْ قَضَيْتِ بِإذْنِ اللهِ أحْيَاكِ

كَسَاكِ مِنْ سُنْدُسِ الإنعامِ أرْدِيَةً ... حَتَّى كَأنَّ جِنانَ الخُلْدِ مأواكِ

---

(١) فى الأصل : الشطر الثانى هكذا : « كدت المحب فما أنت بطالبة » ، وهو مكسور وقد أصلحناه على ما رأيت . ويكون فى الشطر الثانى استفهام مقدر ، أى : أفنا محبك ... إلخ . ويمكن إبقاء الشطر كما هو فيستقيم الوزن عندئذ بإشباع التاء فى « أنت » .

(٢) كافيتنى : أصله كافأتنى بمعنى جزيتنى ، سهلت الهمزة ثم عومل معاملة المعتل الآخر . يسلى : ينسى وهو كدعا يدعو ، ورضى يرضى .

(٣) السرى : السير ليلا .

(٤) المهمه : الفقر الموحش .

(٥) النجب : جمع نجيب ونجيبة وهى الناقة الكريمة ، والأملاك : الملوك .

(٦) كبا يكبو : عثر يعثر . والأين : التعب وكلال السير والإعياء .

(٧) الكوماء : الناقة العظيمة السنام . ومن سقم : أى بسبب السقم . والمناسم : جمع منسم كمجلس ، خف البعير . والأشراك : جمع شرك بفتحتين وهو حبائل الصائد .

(٨) الكهف : الملجأ . وجداع الأنوف : قاطعها كناية عن إذلالها .

كُلِي هَنِيئاً ونامِي غَيْرَ جَازِعَةٍ ... فى مَرْبَعٍ فيهِ مَرْعَانا ومَرْعَاكِ (١)
كانَ الرَّجَاءُ بِلُقْيَاهُ يُمَلِّينِي ... وحادِثاتُ اللَّيالِي دُونَ إدراكِي
كَذَا طِلابُ العُلَى يا نَفْسُ مُمْتَنِعٌ ... فإنْ صَبَرْتِ لهُ نالَتْهُ كَفَّاكِ
كَوَاكِبِ القَطْرِ إلاّ أَنَّ رَاحَتَهُ ... إنْ أَمْسَكَ القَطْرُ لا تَعْبَأْ بإمْسَاكِ (٢)
كَفٌّ حَكَى وابِلَ الأَنْوَاءِ وَابِلُها ... حَتَّى غَدَا يَحْسِدُ المَحْكِيُّ للحَاكِي (٣)
كَمْ أَبْكَتِ البِيضُ فى كَفَّيْهِ إذْ ضَحِكَتْ ... عَيْناً وأَضْحَكَ سِنّاً مالُهُ الباكِي (٤)
كُلُّ الأَنامِ لِمَا أَوْلاهُ شاكِرَةٌ ... فما لَهُ غيرُ بيتِ المالِ مِنْ شاكِ
كُنْ كَيْفَ شِئْتَ بِأَمْنِ اللهِ يا مَلِكاً ... أَضْحَتْ عَزَائِمُهُ أَقْطَابَ أَفْلاكِ

تحريض ورأى ونصيحة

يثور أهل قلعة إربل على المنصور عام ٧٠٢ هـ ويجرد المنصور لها جيشاً يؤدبهم ويعيدهم إلى كنفه صاغرين . ويرى أن يرسل إليهم الجيش وحده دون أن يكون هو معه على رأسه . ويرى صفى الدين أن الخير كل الخير فى أن يسير المنصور بنفسه على رأس جيشه فيحرضه بشدة على النهوض بنفسه إلى لقاء أعدائه . ويبادره من أول بيت دون مقدمة غزلية أو خمرية أو نحوها قائلا :

أَبْدِ سَنَا وَجْهِكَ مِنْ حِجَابِهِ ... فَالسَّيْفُ لا يَقْطَعُ فِى قِرَابِهِ
واللَّيْثُ لا يُرْهَبُ مِنْ زَئِيرِهِ ... إذَا اغْتَدَى مُحْتَجِباً بِغَابِهِ

---

(١) المربع : المنزل .

(٢) الواكب : الماشى ، وفعله وكب يكب وكوباً . ولا تعبأ : لا تهتم . ومعنى البيت أن هذا الممدوح كالقطر . ولكن إذا أمسك القطر عن إنزال المطر ، لا يجار به كف الممدوح ولا تهتم به ، بل تظل فى إمطارها عطاياها .

(٣) الأنواء : جمع نوء وهو نجم يصحب ظهوره نزول المطر وشدة الريح . والوابل : المطر الشديد . وفى قوله للحاكى زاد لام الجر دون سبب إلا ضرورة الوزن . لأن الفعل « يحسد » يتعدى بنفسه

(٤) البيض : السيوف ، وفى البيت مطابقتان لطيفتان ، وعكس .

والنَّجْمُ لا يَهْدِى السَّبِيلَ سارِياً ... إلاَّ إذَا أسْـــفَرَ مِنْ حجابِهِ
والشُّهْدُ لولاَ أنْ يُذَاقَ طَعْمُهُ ... لَما غَدَا مُمَيَّزاً عَنْ صابِهِ
إذَا بَدَا نُورُكَ لا يَصُدُّهُ ... تَزَاحُمُ المَوْكِبِ فى ارْتكابِهِ (١)
وَلاَ يَضُرُّ البَدْرَ وهْوَ مُشْرِقٌ ... أنَّ رَقِيقَ الغَيْمِ مِنْ نِقابِهِ
قُمْ غَيْرَ مَأْمُورٍ ولـكِنْ مِثْلَما ... هُزَّ الحُسامُ ساعَةَ اجْتِذَابِهِ
فالعُمْىُ لاَ تَعْلَمُ إرْزَامَ الحَيا ... حتَّى يَكُونَ الرَّعْدُ فى سَحابِهِ (٢)
كَمْ مُدْرِكٍ فى يَوْمِهِ بِعَزْمِهِ ... ما لَمْ يَكُنْ بالأمْسِ فى حسَابِهِ
مَنْ كانَتِ السُّمْرُ اللِّدَانُ رُسْلَهُ ... كانَ بُلُوغُ النَّصْرِ من جَوَابِهِ (٣)
لا تُبْقِ أحْزابَ العداةِ واعْتَمِدْ ... ما اعْتَمَدَ النَّبِىُّ فى أحْزابِهِ (٤)
ولا تَقُلْ إنَّ الصَّغِيرَ عاجِزٌ ... هل يَجْرَحُ السَّيْفُ سِوَى ذُبابِهِ (٥)
فارْمِ ذُرا قَلْعَتِهِمْ بِقَلْعَةٍ ... تَقْلَعُ أسَّ الطَّوْدِ من تُرَابِهِ (٦)
فإنَّهـــا إذَا رَأتْكَ مُقْبِلاً ... مادَتْ وفَرَّ السُّورُ لا ضْطِرَابِهِ
إنْ لم تُحَاكِ الدَّهْرَ فى دوامِهِ ... فإنَّها تُحْكِيـــهِ فى انْقِلابِهِ
واجْلُ لهُمْ عَزْماً إذَا جَلَوْتَهُ ... فى اللَّيْلِ أغْنَى اللَّيْلَ عنْ شُهابِهِ (٧)
عَزْمَ مَلِيكٍ يَخْضَعُ الدَّهْرُ لهُ ... وتَسْـجُدُ المُلوكُ فى أعْتابِهِ
تُحَاذِرُ الأحْدَاثُ من حدِيثِهِ ... وتَجْزَعُ الخطُوب من خِطابِهِ

---

(١) الارتكاب : الركوب .
(٢) الإرزام : اشتداد صوت الرعد ، أرزم يرزم . والحيا : المطر .
(٣) السمر اللدان : الرماح اللينة .
(٤) يشير فى البيت إلى سعى النبى عليه السلام لهزيمة أحزاب أعدائه .
(٥) ذباب السيف طرفه أو حده الذى به يقتل . ويقصد بالصغير الأعداء .
(٦) أس الطود : أصل الجبل وأساسه .
(٧) الشهاب : شعلة من نار ساطعة ، والنجم . والشهب الدرارى أى النجوم .

قد صَرَفَ الحُجَّابَ عن حَضْرَتِهِ وصَيَّرَ الْهَيْبَةَ من حُجَّابِهِ
إذَا رَأى الأمْرَ بِعَيْنِ فِكْرِهِ رَأى خَطَاءَ الرَّأْيِ منْ صوابِهِ
وَإنْ أجالَ رَأيَهُ فى مُشْكِلٍ أعانهُ الحقُّ عَلَى طِلابِهِ

فتح وتسجيل

أفلحت نصيحة صفى الدين وقاد الملك المنصور جيشه المظفر إلى ثوار قلعة إربل . فما زال بها يحاصرها ، حتى استسلم له أهلها . فأصبح جديراً بصفى الدين أن يسجل هذا الفتح المبين فنظم هذه الدالية(١) :

لاَ تَخْشَ يا رَبْعَ الْحَبِيبِ هُمُودَا فلَقَدْ أخَذْتَ عَلَى العِهَادِ عُهُودَا(٢)
وَلْيُغْنِيَنَّ ثَرَاكَ عَنْ صَوْبِ الحَيَا صَوْبُ المَدَامِعِ إنْ طَلَبْتَ مَزِيدا(٣)
كَمْ غَادَرَتْ مَغْنَاكَ يَوْمَ وَدَاعِنا سُحْبُ المَدَامِعِ مَنْهَلاً مَوْرُودَا
وَلَكَمْ سَكَبْتُ عَلَيْكَ وَافرَ أدْمُعِى فى ذَلِكَ الْيَوْمِ الطَّوِيلِ مُرِيدَا
وَلَقَدْ عَهِدْتُ بكَ الظِّباءَ سَوَانِحاً بِظِلاَلِ شِعْبِكَ والحِسَانَ الغِيدَا(٤)
حُوراً إذَا غُوزِلْنَ كُنَّ جَآذِراً وَإذا أرَدْنَ الْفَتْكَ كُنَّ أُسُودَا(٥)

---

(١) لأمير الشعراء المرحوم أحمد شوقى قصيدة دالية عصماء مطلعها :
« بأبى وروحى الناعمات الغيدا الباسمات عن اليتيم نضيدا »
وترى فيها روائع من دالية صفى الدين .

(٢) الهمود : همدت الأرض هموداً لم يعد فيها حياة ولا عود ولا نبت ولا مطر . والعهاد : ضرب من المطر .

(٣) صوب الحيا : نزول المطر .

(٤) السوانح : البادية ، وسنح له عرض وبدا . والشعب : بكسر أوله الطريق فى الجبل . وسيل الماء فى بطن الأرض أو ما انفرج بين جبلين . والمعنى هنا المسيل .

(٥) الحور : جمع أحور وحوراء وهى التى يشتد بياض عينها وسوادها . والجآذر : جمع جؤزر ، بضم أوله وثالثه أو جؤذر بضم الجيم وفتح الذال وهو ولد البقرة الوحشية ، وهو فى البيت على التشبيه .

أخجلن زهر الأقحوان مباسماً ... زهراً وضاهين الشقيق خدودا(١)

وحسدن كثبان النقا وغصونه ... فتقلن أردافاً ومسن قدودا(٢)

من كل واضحة إذا هي أقبلت ... عاينت درًّا في الثغور نضيدا

حذرت عيون العاشقين فصيرت ... برج الهلال تمائماً وعقودا(٣)

كم قد سهرت الليل أرقب زورة ... منها فلم أر للصباح عمودا

ورعيت أنجمه فأكسبت السها ... سقمي واكسب جفني التسهيدا(٤)

وحملت أعباء الغرام وثقله ... فرداً وحاربت الزمان وحيدا

فجعلت نجم الدين سهمي عندما ... عاينت شيطان الخطوب مريدا(٥)

نجم تدين له النجوم خواضعاً ... ملك تخر له الملوك سجودا

غيث يريك من السيوف وارقاً ... ومن الجياد زلازلاً ورعودا

يقظان ألقى في حبائل عزمه ... شركاً يصيد بها الكماة الصيدا(٦)

رأي يرى ما تحت أطباق الثرى ... وعلى تريد إلى السماء صعودا

وعد الصوارم أن يقد بها الطلى ... وعداً أراه للعداة وعيدا(٧)

---

(١) الأقحوان : نبت طيب أبيض الزهر . وهو البابونج . والمباسم : الثغور . والزهر ، بضم أوله جمع أزهر وزهراء والزهراء المشرقة اللامعة . والشقيق نبت ذو زهر أحمر أو أصفر .

(٢) الكثبان : جمع كثيب وهو التل . والنقا : القطعة من الرمل تنقاد محدودبة . وغصونه يريد غصون الأشجار النابتة فيه . والأرداف : جمع ردف وهو العجز .

(٣) برج الهلال : أحد منازله . ويريد به الهلال أو ما حوله من النجوم . والتمائم جمع تميمة وهي التعويذة. والشاعر يريد أنها ازدادت ووضعت في عنقها حلياً شبيهة بالنجوم والهلال لتشغل بها العيون عن النظر إليها . وفي البيت تعليل لطيف .

(٤) السها : كوكب خفي من بنات نعش

(٥) المريد : المارد المتمرد المقدم العاتي الشرير .

(٦) الشرك : حبال الصيد . والكماة : الشجعان جمع كمي وهو أيضاً لابس السلاح . والصيد الشجعان أيضاً يصيدون غيرهم .

(٧) الصوارم : السيوف . الطلى : بضم أوله جمع طلية وهي العنق أو أصلها .

مَا شَـــدَّدَ النُّونَ الثَّقيلَ لِأَنَّهُ إنْ قَالَ يَسْبِقُ فِعْلُهُ التَّأْكِيدَا

* * *

يَأَيُّها الْمَلِكُ الَّذِى مَلَكَ الْوَرَى فَغَدَتْ لِدَوْلَتِهِ العِبَادُ عَبِيدَا
وَافَيْتَ إِذْ مَاتَ السَّمَاحُ وَأَهْلُهُ فَأَعَدْتَهُ خَلْقاً لَدَيْكَ جَدِيدَا
وَقَدِمْتَ نَحْوَ دِيَارِ بَكْرٍ مُظْهِراً عَدْلاً يُمَهِّدُ أَرْضَهَا تَمْهِيدَا
عَطِلَتْ فَلَوْلاَ أَنَّ ذَلِكَ جَوْهَرٌ لِلّهِ مَا حَلَّى لَهَا بِكَ جِيدَا(١)
كَمْ غَارَةٍ شَعْوَاءَ حِينَ شَهِدْتَهَا أُعْطِيتَ فِيهَا النَّصْرَ والتَّأْيِيدَا(٢)
فى نَارِهَا كُنْتَ الخَلِيلَ وإِنَّمَا عِندَ التَّمَاسِ حَدِيدِهَا دَاوُودَا(٣)
أَخْفَيْتَ وَجْهَ الأَرْضِ مِنْ جُثَثِ العِدَى حَتَّى جَعَلْتَ لَكَ الوُحُوشَ وُفُودَا(٤)
زَوَّجْتَ أَبْكَارَ العِدى بِنُفُوسِهِم وَجَعَلْتَ أَطْرَافَ الرِّمَاحِ شُهُودَا(٥)
كَفَرُوا فَآمَنَتِ الرُّءُوسُ لأَنَّهَا خَرَّتْ لِسَيْفِكَ رُكَّعاً وَسُجُودا(٦)
وَبَغَوْا فَوَكَّلْتَ الحِمَامَ بِحَرْبِهِم ثُمَّ ارْتَضَيْتَ لَهُ السُّيُوفَ جُنُودَا(٧)
ضَاقَتْ عَلَى القَتْلَى الفَلاَةُ بِأَسْرِهَا فَجَعَلْتَ أَكْبَادَ النُّسُورِ لُحُودَا(٨)

---

(١) الجيد : العنق .

(٢) كم غارة : يريد كثير من الغارات والحروب . والشعواء : الشديدة القاسية المتشعبة .

(٣) يشبهه فى البيت بسيدنا إبراهيم بمعنى أن نار الحرب لم تؤثر فيه . و يشبهه بسيدنا داود وقدرته على صناعة الحديد .

(٤) أصبحت الوحوش وفوداً لكثرة ما قدم لها من جثث الأعداء فكأنها أضيافه .

(٥) يبدو أن زوجت هنا معناها أصحبتها بهم أى قضيت عليهم جميعاً رجالا وأبكاراً . وورى بكلمة زوجت ، بمعنى التزويج والزواج ، فهد بذلك للتورية التالية وهى قوله : شهوداً أى شهود العرس . ولكن المعنى المراد أن الرماح هى التى شهدت عملية التزويج والمصاحبة أى قتل الأعداء رجالا وأبكاراً .

(٦) فى البيت تعليل لطيف لإيمان الرءوس .

(٧) الحمام : الموت .

(٨) الفلاة : القفر والمفازة لا ماء فيها ولا نبات .

وَجَرَتْ عَلى الخيلِ الدِّمَاءُ مُذَالةً ... فكأنما كُسِيَتْ بهنَّ جُلُودَا[1]

يا ويحَ قَوْمٍ أغضَبُوكَ بجَهْلِهِمْ ... وَرَأَوْا قريبَ الفتحِ منكَ بَعيدَا

وتَحَصَّنُوا فى قلعةٍ لَمْ يَعْلَموا ... أنْ سَوْفَ تشهدُ يومَها المَوْعُودَا

حتَّى رَمَيْتَ حُصُونَها بكَتَائِبٍ ... شُهْبٍ وَقُدْتَ لَهَا الجيادَ القُودَا[2]

بقَسَاوِرٍ قَلَّتْ عَدِيداً فى اللِّقَا ... ومِنَ الشَّجَاعَةِ أنْ تقلَّ عَديدَا[3]

مِنْ فتيةٍ كَسَرُوا غُمودَ سُيُوفهم ... واستبدلوا قُلَلَ الرُّءوسِ غُمُودَا

رَفَضُوا الدُّرُوعَ عَنِ الجسُومِ وأسْبَغُوا ... فَوْقَ الجسومِ من القلوبِ حَدِيدَا

جزع وبكاء

واستمرت صلة صفى الدين بالملك المنصور وثيقة قرابة عشر سنوات . ثم فاجأه المنون . فجزع عليه صفى الدين جزعاً شديداً وبكاه وبكى فيه الندى الجم والحلم الرحب والتواضع الكريم ، فقال :

يا بدوراً تغيبُ تحتَ التُّرابِ ... وجبالاً تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ

إنَّ فى ذَلِكَ اعْتِباراً وذِكْرَى ... يَتَوعَّى بها ذَوُو الْأَلْبَابِ

قُلْ لِصَادِى الآمَالِ لاَ تَرِدِ الْعَيْـــشَ فإنَّ الحَيَاةَ لَمْعُ سَرَابِ[4]

أَيْنَ رَبُّ السَّرِيرِ والجِيزَةِ البَيْـــضَاءِ ذَاتِ النَّخِيلِ والأَعْنَابِ[5]

---

(١) مذالة : مرسلة وسابغة . وأزلت القناع أرسلته .

(٢) الكتائب الشهب : فصائل الجند وهى بيضاء لما تلبسه أو لشهامتها أو لتوقع النصر منها أو للون خيولها . والقود : جمع أقود وقوداء ، الطويلة العنق والظهر

(٣) والقساور جمع قسورة وهو الأسد ويريد الشجعان والفرسان . والعديد العدد . وفى البيت تعليل طريف للقلة .

(٤) صادى الآمال : ظامئها .

(٥) قوله : أين رب . . . إلخ يريد به الملك المنصور . والسؤال هنا للتحسر والعظة وأصل الجيزة جانب الوادى كالجيز .

عَرَصَـــاتٌ كَأَنَّهُنَّ سَمَاءٌ قَدْ تَوَارَتْ شُمُوسُهَا فِى الحِجَابِ (١)

أَيْنَ رَبُّ الآرَاءِ والرُّتْبَةِ العَلْـــيَاءِ والمَاجِدُ الرَّفِيعُ الجَنَابِ

والَّذِى لَقَّبُوهُ بالأَبْلَجِ الوَهَّـــابِ طَوْراً والْعَابِسِ النَّهَّابِ (٢)

لَيْثُ أَبْنَاءِ أُرْتُقَ المَلِكُ المَنْصُـــورُ رَبُّ الإِحْسَانِ والأَنْسَابِ (٣)

صَاحِبُ الرُّتْبَةِ التِى نَكَصَ العَا لَمُ مِنْ دُونِهَا على الأَعْقَابِ

وَمُجَلِّى لَبْسِ الأُمُورِ إِذَا بَرْ قَعَ قُبْحُ الخَطَا وُجُوهَ الصَّوَابِ

حَازَ حِلْمَ الكُهُولِ طِفْلاً وأَعْطِى وَرَعَ الشيبِ فِى أَوَانِ الشَّبَابِ (٤)

لَمْ تُرَنِّحْ أَعْطَافَهُ نَشْوَةُ المُلْـــكِ وَلاَ يَزْدَهِيهِ فَرْطُ اعْتِجَابِ

رَافِعُ النَّارِ بالْيَفَاعِ إِذَا أَخْمَـــدَ بَرْدُ الشِّتَاءِ صَوْتَ الكِلاَبِ (٥)

ومُحِيلُ العَامِ المُحِيلِ إِذَا اعتَـــا دَ لِسَانُ الفَصِيحِ نَطْقَ الذُّبَابِ (٦)

عَرَفُوا رَبْعَهُ وَقَدْ أَنْكَرَ الجو دُ بِرَفْعِ اللِّوَا وَنَصْبِ العِتَابِ (٧)

وَقُدُورٍ بِمَا حَوَتْ رَاسِيَاتٍ وَجِفَانٍ مَمْلُوءَةٍ كَالجَوَابِى (٨)

مَلِكٌ أَصْبَحَ الْخَلاَئِقُ وَالأَيَّـــامُ وَالأَرْضُ بَعْدَهُ فِى اضْطِرَابِ

فَاعْتَبِرْ خُضْرَةَ الرِّيَاضِ تَجِدْهَا أَثَرَ اللُّطْمِ فِى خُدُودِ الرَّوَابِى

---

(١) العرصات : جمع عرصة وهى كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء .

(٢) الأبلج الذى فيه بلج وبلجة وهى الوضوح والضوء ونقاوة ما بين الحاجبين .

(٣) يبدو أن الإحسان هنا أصلها الأحساب وفيها تحريف مطبعى .

(٤) حلم الكهول : عقلهم .

(٥) اليفاع : التل .

(٦) العام : المحيل المقفر الجدب . ويريد الشاعر بالبيت إذا أصبح يطن طنين الذباب شكاية .

(٧) ربعه : منزله . واللواء : العلم .

(٨) الجفان : جمع جفنة الآنية . والجوابى : جمع جابية وهى الحوض الضخم .

حَمَلُوهُ عَلَى الرِّقَابِ وَقَدْ كَا نَ نَدَاهُ أَطْوَاقَ تِلْكَ الرِّقَابِ
مَا أَظُنُّ المَنُونَ تَعْلَمُ مَاذَا قَصَفَتْ فِي عُلَاهُ مِنْ أَصْلَابِ (١)
يا رَجِيمَ الخُطُوبِ فَاسْتَرِقِ السَّمْـــعَ فَأُفْقُ العُلَى بِغَيْرِ شِهَابِ (٢)
فَلْيَطُلْ بَعْدَهُ عَلَى الدَّهْرِ عَتْبِي رُبَّ ذَمٍّ مُلَقَّبٍ بِعِتَابِ
أَيُّهَا الذَّاهِبُ الذي عَرَّضَ الأَمْـــوَالَ والنـاسَ بَعْدَهُ لِلذَّهَابِ
طَارَ لُبُّ السَّمَاحِ يَوْمَ تُوُفِّيـــتَ وَشُقَّتْ مَرَائِرُ الآدَابِ
وَعَلَا فِي المَلَا عَوِيلُ العَوَالِي وَنَحِيبُ اليَرَاعِ والقِرْضَابِ (٣)
لَوْ يُرَدُّ الرَّدَى بِقُوَّةِ بَأْسٍ لَوَفَيْنَاكَ فِي الأُمُورِ الصِّعَابِ
بِأُسُودٍ بِيضِ الوُجُوهِ طِوَالِ البَـــاعِ شُمِّ الأُنُوفِ غُلْظِ الرِّقَابِ (٤)
تَرَكُوا اللَّهْوَ لِلغُوَاةِ وَأَفْنَوْا عُمْرَهُمْ فِي كَتَائِبٍ أَوْ كِتَابِ (٥)
وَجِيَادٍ مِثْلِ العَقَارِبِ نَحْوَ الرَّ وْعِ تَسْعَى شَوَائِلَ الأَذْنَابِ (٦)
كُلُّ طِرْفٍ مُطَهَّمٍ سَائِلِ الغُـــرَّةِ جَعْدِ الرُّسْغَيْنِ سَبْطِ الإِهَابِ (٧)

---

(١) المنون : الموت . والأصلاب : جمع صلب وهو عظم الكاهل إلى عظم العجز . وقصفت : هصرت وقطعت . ويريد الشاعر أن موته أساء إلى أناس كثيرين حزناً أو حرماناً .

(٢) رجيم الخطوب : شيطانها ويريد به العدو .

(٣) الملا : الملأ سهلت همزته بمعنى الناس . والعوالى . أطراف الرماح جمع عالية . واليراع : القلم . والقرضاب : السيف .

(٤) المراد بالأسود الشجعان. وبيض الوجوه : كرام أبطال . وطوال الباع : أى ممدود والأيدى، كناية عن الشجاعة أو الكرم . وشم الأنوف : أى أنوفهم عالية لا يخفضونها ، كناية عن العزة وإباء الضيم . غلظ الرقاب : كناية عن القوة والثبات والكبرياء .

(٥) الغواة : اللاهون جمع غاو . وقوله فى كتائب أو كتاب ، يريد فى الحرب أو العلم .

(٦) شوائل الأذناب : رافعة ذيولها كناية عن القوة والإقدام .

(٧) الطرف : الجواد والفرس . المطهم : السمين والنحيف الدقيق ، ضدان . والمعنى الثانى هو المراد هنا . وسائل الغرة : أى غرته سائله بمعنى أن بياض جبهته طاغ عليها وواضح مشرق . والجعد : ضد البسط وهو المتثنى . والرسغان : مفرده رسغ وهو الموضع المستدق بين حافر الدابة وعظم ساقها فى اليد أو الرجل ، وأيضاً مفصل ما بين الساعد والكف . وما بين الساق والقدم . ويربط منه البعير والجواد ومثلهما . وسبط الإهاب : مرسل الجلد ليس فيه ترهل أو تجعد .

كُنْتَ ذُخْراً لَنَا لَوَ انَّ المَنَايَا ... جُنِّبَتْ عَنْ رَفِيعِ ذَاكَ الجَنَابِ
لَمْ أَكُنْ جَازِعاً وَأَنْتَ قَرِيبٌ ... لِبِعَادِ الأَهْلِينَ والأَنْسَابِ
كان جودُك العديمُ أنيساً ... فى انفرادِى وَمَوْطِناً فى اغْتِرَابِى
مَا بَقَائِى مِنْ بَعْدِ فَقْدِكَ إِلاَّ ... كَبَقَاءِ الرِّيَاضِ بَعْدَ السَّحَابِ

حث وحفز

وولى الملك بعد المنصور ابنه الملك العادل فات من عامه . فولى الملك بعده أخوه الصالح بن المنصور ، فقرب إليه صفى الدين على مثال ما كان أبوه . وأصبح صفى الدين فى دولة الصالح على نمط ما كان فى دولة أبيه .

وكان التتار قد اختلفوا فيما بينهم واضطربت أحوالهم وكثر النزاع بين زعمائهم بالعراق . فأخذ صفى الدين يحس الملك الصالح على التحرز منهم والترقب لهم ، وعلى مناجزتهم عند سنوح الفرصة والإفادة مما دب بينهم من الخلاف . فقدم إليه هذه القصيدة الطلية المشهورة ، التى مدحه فيها وهنأه فى أعقابها بعيد النحر :

لاَ يَمْتَطِى المَجْدَ مَنْ لَمْ يَرْكَبِ الخَطَرَا ... ولا يَنالُ العُلَى مَنْ قَدَّمَ الحَذَرَا
ومَنْ أَرادَ العُلَى عَفْواً بِلاَ تَعَبٍ ... قَضَى ولم يَقْضِ مِنْ إِدْرَاكِها وَطَرَا
لاَ بُدَّ للشُّهدِ من نَحْلٍ يُمَنِّعُهُ ... لا يجتنى النَّفْعَ مَنْ لم يَحْمِلِ الضَّرَرَا
لا يُبلِغُ السُّؤْلَ إلاَّ بَعْدَ مُؤْلِمَةٍ ... ولا تَتِمُّ المُنى إلاَّ لِمَنْ صَبَرَا
وأَحْزَمُ النَّاسِ مَنْ لَوْماتَ مِنْ ظَمَأٍ ... لا يقْرَبُ الوِرْدَ حَتَّى يعرِفَ الصَّدَرَا[1]
وأَغْزَرُ النَّاسِ عَقْلاً مَنْ إِذَا نَظَرَتْ ... عَيناهُ أمراً غَدا بالغَيرِ مُعْتَبِرَا
فَقَدْ يُقالُ عِثارُ الرِّجْلِ إن عَثَرَتْ ... ولا يُقالُ عِثارُ الرَّأْيِ إنْ عَثَرَا
مَنْ دَبَّرَ العَيْشَ بالآراءِ دامَ لهُ ... صَفْواً وجاء إليهِ الخَطْبُ مُعتَذِرَا

(١) الورد : بلوغ الماء للشرب ، والصدر الرجوع منه .

يَهُونُ بالرَّأْيِ ما يَجْرِى القضاءُ بهِ ... مَنْ أخْطأَ الرَّأْىَ لا يَسْتَذْنِبِ القَدَرا

مَنْ فاتَهُ العِزُّ بالأقلامِ أدْرَكَهُ ... بالبيضِ يَقْدَحُ من أعْطافِها الشَّرَرَا

بِكُلِّ أبْيضَ قدْ أجرَى الفِرِنْدُ بهِ ... ماءَ الرَّدَى فلو استَقْطرْتَهُ قطرَا

خَاضَ العَجَاجَةَ عُرْيانًا فما انقَشَعَتْ ... حتى أتَى بِدَمِ الأبطالِ مُؤْتَزِرا[1]

لا يَحْسُنُ الحلمُ إلا من مواطِنِهِ ... ولا يَليقُ الوَفا إلاَّ لِمن شَكَرَا

وَلا ينالُ العُلى إلاَّ فتًى شَرُفَتْ ... خِلالهُ فأطاعَ الدَّهرُ ما أمَرَا

كالصَّالحِ الملكِ المرْهُوبِ سَطْوَتُه ... فلَوْ توَعَّدَ قَلْبَ الدَّهرِ لانْفطَرَا

لَمَّا رَأى الشرَّ قد أبدى نواجِذَهُ ... والغدْرَ عنْ نابِهِ للحرْبِ قد كَشَرَا[2]

رأى النِّسِىَّ إنانًا فى حَقِيقَتِها ... فعافَها واستشارَ الصارمَ الذَّكَرا[3]

فجرَّدَ العزْمَ مِنْ قَتْلِ الصِّفاحِ لها ... مَلْكٌ عن البيضِ يَسْتغنى بِما اشتَهَرا

يَكادُ يُقْرَأُ منْ عُنوانِ هِمَّتِهِ ... ما فى صحائفِ ظهرِ الغيْبِ قد سُطِرَا

كالْبَحْرِ والدَّهْرِ فى يَوْمَىْ نَدًى وردًى ... واللَّيْثِ والغَيْثِ فى يَوْمَىْ وَغًى وقِرَى

ما جادَ لِلنَّاسِ إلا قَبْلَما سَأَلُوا ... وَلا عَفا قَطُّ إلاَّ بَعْدَما قَدَرَا

لامُوهُ فِى بَذْلِهِ الأمْوَالَ قُلْتُ لَهُمْ ... هَلْ تَقْدِرُ السُّحبُ أَلاَّ تُرْسِلَ القَطَرَا

إذَا غَدَا الغُصْنُ غَضًّا فِى مَنابِتِهِ ... مَنْ شَاءَ فَلْيَجْنِ مِنْ أفْنانِهِ الثَّمَرَا

مِنْ آلِ أُرْتُقَ المَشْهُورِ ذِكْرُهُمُ ... إذْ كانَ كالْمِسْكِ إنْ أخْفَيْتَهُ ظَهَرَا

الحَامِلِينَ مِنَ الخَطِّىِّ أطْوَلَهُ ... وَالنَّاقِلِينَ مِنَ الأسْيافِ ماقَصُرا[4] . . إلخ

---

(١) العجاجة : غبار الحرب . المؤتزر المغطى بالإزار .

(٢) النواجذ : جمع ناجذ وهى الأنياب أو هى أقصى الأضراس وهى أربعة أو الأضراس . والنجذ شدة العض بها . وكشر : عبس .

(٣) القسى : جمع قوس التى تقذف السهام . والصارم الذكر : السيف القرى .

(٤) الخطى : نوع من الرماح ينسب إلى الخط وهو صانعها أو ناحية تصنع بها .

مدح وتهنئة واعتراف بالفضل واعتذار

وزل الملك الصالح إلى « الصور » فنظم صفى الدين الرائية الجليلة الممتعة الطويلة وهى متنوعة الأغراض بدأها الشاعر بوصف الرياض وأغصانها وجداولها ومائها وظلها وأزهارها من نرجس وأقحوان . وثنى بذكر الشباب ومباذله وملاهيه من غناء وراقصات ، ومن خمر وسقاة وأباريق ، ثم مدح الملك الصالح وبين أياديه الكثر وأفضاله العدة وأثنى عليها . وهنأ بصومه وإفطاره . وحدث بنعم آل أرتق عليه ، ثم افتخر بشعره ، فمنها :

وَقَائِلٍ إِذْ رَأَى الْجَنَّاتِ عَالِيَةً ... وَالْحُورَ مَقْصُورَةً بَيْنَ الْمَقَاصِيرِ (١)

وَالْجَوْسَقَ الْفَرْدَ فِي لُجِّ الْبُحَيْرَةِ وَالصَّـ ... ـرْحَ الْمُمَرَّدَ فِيهِ مِنْ قَوَارِيرِ (٢)

لِمَنْ تَرَى الْمُلْكَ بَعْدَ اللهِ قُلْتُ لَهُ ... مَقَالَ مُنْبَسِطِ الآمَالِ مَسْرُورِ

لِصَاحِبِ التَّاجِ وَالْقَصْرِ الْمَشِيدِ وَمَنْ ... أَتَى بِعَدْلٍ بِرَحْبِ الأَرْضِ مَنْشُورِ

فَقَالَ تَعْنِي بِهِ كِسْرَى فَقُلْتُ لَهُ ... كِسْرَى ابْنَ أُرْتَقَ لاَ كِسْرَى بْنَ سَابُورِ (٣)

الصَّالِحُ الْمَلِكُ الْمَشْكُورُ نَائِلُهُ ... وَرُبَّ نَائِلِ مَلْكٍ غَيْرُ مَشْكُورِ (٤)

مَلْكٌ إِذَا وَفَرَ النَّاسُ الثَّنَاءَ لَهُ ... أَمْسَتْ يَدَاهُ بِوَفْرٍ غَيْرِ مَوْفُورِ

مَحْبُوبَةٌ عِنْدَ كُلِّ النَّاسِ طَلْعَتُهُ ... كَأَنَّهَا لَهَبٌ فِي عَيْنِ مَقْرُورِ (٥)

يُرْجَى وَيُحْذَرُ فِي يُمْنَىْ نَدًى وَرَدًى ... وَالْبَحْرُ مَا بَيْنَ مَرْجُوٍّ وَمَحْذُورِ (٦)

---

(١) وقائل : أى رب قائل يقول . ومقصورة : مصونة — والمقاصير : الدور الواسعة المحصنة .

(٢) الجوسق : القصر . والصرح أيضاً القصر وكل بناء عال . والممرد : البناء المطول والمسوى . والقوارير : جمع قارورة وهى الزجاج الصافى فى بياض الفضة .

(٣) كسرى بن سابور من ملوك الفرس .

(٤) النائل : العطاء .

(٥) المقرور : الذى أصابه القر أى البرد .

(٦) يشبهه فى الشطر الثانى تشبيهاً ضمنياً بالبحر . أو على حذف المبتدأ وتقديره هو البحر وهو مرجو فى عطائه . ومحذور فى غضبه وثورته .

شمسٌ تُحيلُ ضياءَ الشمسِ طلعتُه ... كأنَّما عُوجِلَتْ مِنْهُ بتكْوِيرِ (١)

لا تفخرُ الشمسُ إلاَّ أنَّها لَقَبٌ ... لَهُ وَشِبْهٌ لهُ فى العِزِّ والنُّورِ

إنْ هَمَّ بالجودِ لَمْ تَنْظُرْ عَزَائِمُهُ ... فِى فِعْلِهِ بَيْنَ تَقْدِيمٍ وَتأخِيرِ

يَلْقَاكَ قَبْلَ العَطَا بالبِشْرِ مُبْتَدِئاً ... بَسْطاً وَبَعْدَ العَطَايَا بالمَعَاذِيرِ

رَأَتْ بَنُو أُرْتُقٍ نَهْجَ الرَّشَادِ بِهِ ... وَلَيْسَ كُلُّ زِنَادٍ فِى الدُّجَى يُورِى

بِرَأْيِهِ انْصَلَحَتْ آرَاءُ مُلْكِهِمُ ... كأنَّهُمْ ظَفِرُوا منه بإكْسِيرِ (٢)

كَمْ عُصْبَةٍ مُذْ بَدَا سُوءُ الخِلَافِ بها ... بَادَتْ بِصَارِمِ عَزْمٍ منه مَشْهُورِ

سَعَوْا إلى الحَرْبِ والهاماتُ سَاجِدَةٌ ... والبِيضُ مَا بَيْنَ تهليلٍ وتَكْبِيرِ (٣)

مَشَوْا كَمَشْىِ القَطَا حَتَّى إذَا حَمَلُوا ... ثِقْلَ القُيُودِ مَشَوْا مَشْىَ العصَافِيرِ (٤)

يَا بَاذِلَ الخَيْلِ فِى يَوْمِ الغُلُوِّ بِهَا ... وَمَا أَتَيْنَا بِسَعْىٍ غَيْرِ مَشْكُورِ

إنْ كَانَ زَهْوَةُ كِسْرَى بالأُلُوفِ فكَمْ ... وَهَبْتَ مِنْ عَدَدٍ بالأَلْفِ مَجْذُورِ (٥)

أو كَانَ بالجَوْسَقِ النعمانُ تَاهَ فَكَمْ ... مِنْ جَوْسَقٍ لَكَ بالشِّعْبَيْنِ مَعْمُورِ (٦)

فِى كُلِّ مُسْتَصْعَبِ الأَرْجَاءِ مُمْتَنِعٍ ... تَبْنِى القَنَاطِرَ فِيهِ بالقَنَاطِيرِ

لَوْ مَرَّ عَادُ بنُ شَدَّادٍ بِجَنَّتِهِ ... أَقَامَ يَقْرَعُ فيها سِنَّ مَغْرُورِ (٧)

---

(١) التكوير : إدخال الليل فى النهار فيظلم .

(٢) الإكسير : الكيمياء . والشاعر يريد أنه كان عنصر حياة لهم وللكهم .

(٣) الهامات : الرءوس .

(٤) القطاة : طير صغير .

(٥) زهوته : عجبه وتيهه . وهى مرة من الزهو . والمجذور : المضاعف « المضروب فى مثله » .

(٦) الجوسق : القصر . والنعمان أحد ملوك الحيرة فى الجاهلية . والشعب الممر بين الجبلين أو مسيل الماء .

(٧) عاد بن شداد : هو بانى إرم ذات العماد . ويقرع : يضرب ، كناية عن الندم أو الغيظ

لاَ غَرْوَ إن جَدَّتِ الوُفَّادُ قَاصِدَةً ... إليكَ تَطوِى الفَلاَ طَىَّ الطَّوامِيرِ (١)
إنْ تَسْعَ نَحْوَكَ مِنْ أقْصَى الشَّـامِ فَقَدْ ... سَعَتْ إلَى المَلِكِ المنصورِ من صُورِ (٢)
فاسعدْ بعيدٍ به عادَ السرورُ لَنَا ... وعادَ شَانِيكَ فى غَمٍّ وتكْدِيرِ (٣)
صُمَّتْ بِصَوْمِكَ أسماعُ العِدَاةِ وكَمْ ... قَلْبٍ لَهُمْ مِنْكَ بالإفطَارِ مَفْطُورِ
أدْعُوكَ دَعْوَةَ عَبْدٍ وَامِقٍ بِكُمُ ... يَا وَاحِدَ العَصْرِ فاسمَعْ غَيْرَ مأمُورِ
لاَ أدَّعِى العُذْرَ عَنْ تأخيرِ قَصْدِكُمُ ... لَيْسَ المُحِبُّ عَلَى بُعْدٍ بِمَعْذُورِ
بَلْ إنْ غَدَا طولُ بُعْدِى عَنْ جَنَابِكُمُ ... ذنبى العظيمَ فهذا المدحُ تكفيرى

كسر الخليج

وفد صفى الدين على مصر وهو ذاهب إلى حج بيت الله الحرام ثم عاد بعد الحج إلى القاهرة وأقام بها نحو عام واحتفلت مصر إبان إقامته فيها احتفالها السنوى بعيد كسر الخليج المصرى فنظم صفى الدين قوفيته الطلية الممتعة التى مدح فيها السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ووصف فيها ربيع مصر وبجاليه. ونقتطف من القصيدة الأبيات الآتية :

خَلَعَ الربيعُ عَلَى غُصُونِ البَانِ ... حُلَلاً فَوَاضِلُهَا على الكُثْبَانِ (٤)
وَتَمَتْ فُرُوعُ الدَّوْحِ حَتَّى صَافَحَتْ ... كَفَلَ الكَثِيبِ ذَوَائِبُ الأغْصَانِ (٥)

---

(١) لا غرو : لا عجب . والفلا : جمع فلاة وهى القفر المخوف . والطوامير جمع طومار وهو الورق والصحف .

(٢) صور : اسم بلد .

(٣) الشانى : الشانئ من شنأ يشنأ سهل همزته . ومعناه العدو المبغض الكاره .

(٤) البان : شجر طويل الساق . خلع عليها : يريد كساها بالأوراق . وحللها : أوراقها وفواضلها : أطرافها . والكثبان : جمع كثيب وهو التل .

(٥) الدوح : الشجر العظيم جمع دوحة . والمراد بالمصافحة الملامسة . والكفل : العجز وكفل الكثيب أجزاؤه البارزة فى وسطه أو أسفله ككفل الدابة . وذوائب : جمع ذؤابة وهى خصلة الشعر ، شبه بها فواضل الأغصان فى التدلى وتفرق الأجزاء والتشعث .

وَتَتَوَّجَتْ هَامُ الغُصُونِ وَضَرَّجَتْ ... خَدَّ الرِّيَاضِ شَقَائِقُ النُّعْمَانِ (١)

وَتَنَوَّعَتْ بُسُطُ الرِّيَاضِ فَزَهْرُهَا ... مُتَبَايِنُ الأَشْكَالِ والأَلْوَانِ

مِنْ أَبْيَضٍ يَقَقٍ وَأَصْفَرَ فَاقِعٍ ... أَوْ أَزْرَقٍ صَافٍ وَأَحْمَرَ قَانِ (٢)

والظِّلُّ يَسْرِقُ فِى الخَمَائِلِ خَطْوَهُ ... والغصنُ يخطِر خِطرةَ النَّشوانِ (٣)

وَكَأَنَّمَا الأَغْصَانُ سُوقُ رَوَاقِصٍ ... قَدْ قُيِّدَتْ بِسَلَاسِلِ الرَّيْحَانِ (٤)

والشَّمْسُ تَنْظُرُ مِنْ خِلَالِ فُرُوعِهَا ... نَحْوَ الحَدَائِقِ نَظْرَةَ الغَيْرَانِ

والطَّلْعُ فِى خَلَلِ الكِمَامِ كَأَنَّهُ ... حُلَلٌ تَفَتَّقُ عَنْ نُحُورِ غَوَانِي (٥)

والأَرضُ تعجبُ كيفَ تَضْحَكُ والحيَا ... يَبكِى بدمْعٍ دائمِ الهَمَلانِ (٦)

حَتَّى إِذَا افْتَرَّتْ مَبَاسِمُ زَهْرِهَا ... وَبَكَى السَّحَابُ بِمَدْمَعٍ هَتَّانِ (٧)

ظَلَّتْ حَدَائِقُهُ تُعَاتِبُ جُونَهُ ... فَأَجَابَ مُعْتَذِراً بِغَيْرِ لِسَانِ (٨)

طَفَحَ السُّرُورُ عَلَيَّ حَتَّى إِنَّهُ ... مِنْ عُظْمِ مَا قَدْ سَرَّنِى أَبْكَانِى

---

(١) ضرجته . صبغته باللون الأحمر . وشقائق النعمان : نبات ذو زهر أصفر أو أحمر ، تبدو زهراته شقين ، قيل سأل عنه النعمان فنسب إليه .

(٢) اليقق : بفتح القاف أو كسرها الشديد البياض . والفاقع مبالغة فى الاصفرار . والقانى الشديد الحمرة . وأصله قانئ بالهمزة من قنأ أى اشتدت حمرته .

(٣) الخمائل جمع خميلة وهى الشجر الملتف ، والموضع الكثير الشجر . والنشوان السكران . وقوله : والظل يسرق خطوه لأنه يسير وئيداً وئيداً وينتقل انتقالا لا يلحظه من يصاحبه . ويخطر يميل بهوادة ولين . وخطرة : بكسر أوله اسم هيئة يخطر .

(٤) سوق : جمع ساق .

(٥) الطلع : يريد به هنا ما يبدو من أول الثمر . والكمام : جمع كم وهو وعاء الطلع وغطاء النور . وقوله : تفتق أى تتفتق حذف تاء المضارعة تخفيفاً . ومعناها تتشقق فيبدو مابها كأنه نحور الغوانى أى أعلى صدورهن .

(٦) الحيا : المطر .

(٧) الهتان : الكثير السيل الغزير .

(٨) الجون : السحب القاتمة الممطرة .

فاصْرِفْ هُمُومَكَ بالرَّبيعِ وَفَضْله ... إنَّ الرَّبيعَ هُوَ الشَّبَابُ الثَّانى

أنَّى وَقَدْ صَفَتِ المِيَاهُ وَزُخْرِفَتْ ... جَنَّاتُ مِصْرَ وَأَشْرَقَ الهرَمَانِ

واخْضَرَّ وادِيهَا وحَدَّقَ زَهْرُهُ ... والنِّيلُ فِيهِ كَكَوْثَرٍ بِجِنَانِ (١)

وَبِهِ الجَوَارِى المُنْشَآتُ كَأَنَّهَا ... أعلامُ بِيدٍ أوْ فُرُوعُ قِنَانِ (٢)

نَهَضَتْ بِأَجْنِحَةِ القُلُوعِ كَأَنَّها ... عِنْدَ المَسِيرِ تَهُمُّ بالطيرانِ

والماءُ يُسْرِعُ فِى التَّدَفُّقِ كُلَّمَا ... عَجِلَتْ عَلَيْهِ يَدُ النسيمِ الوانى

طَوْراً كأَسْنِمَةِ القِلاَصِ وَتَارَةً ... مُتَفَتِّلٍ كَأَكَارِعِ الغِزْلاَنِ (٣)

حَتَّى إذَا كُسِرَ الخَلِيجُ وَقُسِّمَتْ ... أَمْوَاهُ لُجَّتِهِ عَلَى الْخُلْجَانِ

سَاوَى البِلاَدَ كما تُساوِى فى الندى ... بَينَ الأنام مَوَاهِبُ السلطانِ (٤)

الناصرُ المَلِكُ الذى فى عَصرِهِ ... شكرَ الظباءُ صنيعةَ السِّرحانِ (٥)

مَلِكٌ إذَا اكتحلَ الملوكُ بنُورِهِ ... خَرُّوا لِهَيْبَتِهِ إلى الأذْقانِ (٦)

وإذَا جَرَى بَيْنَ الوَرَى ذِكرُ اسمِهِ ... تُغْنِيهِ شُهْرَتُهُ عنِ ابنِ فُلاَنِ

مِنْ مَعْشَرٍ خَزَنُوا الثنـاءَ وقَطَّعُوا ... بِفَنا النُّضَارِ جَوَائِزَ الخُزَّانِ (٧) ... إلخ

---

(١) حدق الزهر : ظهر حدقه أى تفتحت عيونه .

(٢) الجوارى المنشآت : السفن العظيمة . والأعلام : الجبال مفردها علم . والقنان قممها مفردها قنة .

(٣) أسنمة القلاص : ظهور النوق . جمع سنام . ومتفتل : منصرف وجار . والأكارع : جمع أكرع مفردها كراع وهو عظم الساق من الدابة .

(٤) يريد الشاعر أن الخليج يساوى بين البلاد فيما يفرقه عليها من المياه كما تساوى عطايا السلطان بين الناس . وهو انتقال لطيف إلى المدح .

(٥) السرحان بكسر السين الذئب . وسبب الشكر عدل السلطان بينهما وحفظه حق كل منهما .

(٦) خروا إلى الأذقان : سجدوا . ولهيبته : أى بسببها .

(٧) فنا : أصله فناء قصره للضرورة . والنضار : الذهب .

ربيعية

ويعجب صفى الدين دائماً — وهو الشاعر الوصاف — بمراثى الربيع ومفاتنه ، وتحيل خياله ميداناً حافلا بشتى ضروب الإحساس القوية ، وبالمشاعر الحية ، التى تخلع صفات الإنسان على عالم الزهر والطير والحيوان فيقول :

وَرَدَ الرَّبِيعُ فَمَرْحَباً بِوُرُودِهِ ... وبِنُورِ بَهْجَتِهِ ونَوْرِ وُرُودِهِ (١)

وبِحُسْنِ مَنْظَرِهِ وطِيبِ نَسِيمِهِ ... وَأَنِيقِ مَلْبَسِهِ وَوَشْيِ بُرُودِهِ (٢)

فَصْلٌ إِذَا افْتَخَرَ الزَّمانُ فإنَّهُ ... إِنْسَانُ مُقْلَتِهِ و بَيْتُ قَصِيدِهِ (٣)

يُغْنِي المِزَاجَ عَنِ العِلاَجِ نَسِيمُهُ ... بِاللُّطْفِ عِنْدَ هُبُوبِهِ وَرُكُودِهِ

يا حَبَّذَا أَزْهَارُهُ وثِمارُهُ ... ونَباتُ نَاجِمِهِ وَحَبُّ حَصِيدِهِ (٤)

وَتَجَاوُبُ الأَطْيَارِ فى أَشْجَارِهِ ... كَبَنَاتِ مَعْبَدَ فى مَوَاجِبِ عُودِهِ (٥)

والغصنُ قَدْ كُسِيَ الغَلاَئِلَ بَعْدَ مَا ... أَخَذَتْ يَدَا كَانُونَ فِى تَجْرِيدِهِ (٦)

نالَ الصِّبَا بَعْدَ المَشِيبِ وَقَدْ جَرَى ... مَاءُ الشَّبِيبَةِ فِى مَنَابِتِ عُودِهِ

والوردُ فى أَعْلَى الغُصُونِ كأنه ... مَلِكٌ تَحُفُّ بِهِ سَرَاةُ جُنُودِهِ (٧)

---

(١) النور : بفتح أوله مجتمع الزهر .

(٢) وشى برودة : زخرفة أثوابه .

(٣) إنسان المقلة : ما به إبصارها . والمقلة العين . وبيت قصيده أحسن بيت فيه ، وهما هنا على التشبيه .

(٤) الناجم من النبات : ما نبت على غير ساق . والحصيد المحصود المقطوع بالمنجل ونحوه .

(٥) معبد اسم مغن مشهور قديم . وبناته ألحانه وأنغامه . ومواجب : جمع موجبة وأصلها ما توجب الجنة من الحسنات . أو ما توجب النار من السيئات . ويبدو أن الشاعر أراد المعنى الأول أى حسنات العود وألحانه الجميلة المعجبة .

(٦) الغلائل : جمع غلالة ما يلبس تحت الثياب . وكانون من أشهر الصيف . تجريده إسقاط أوراقه .

(٧) سراة جنوده : رؤساؤهم .

وَكَأَنَّمَا القَدَّاحُ سِمْطُ لآلِىء ... هُوَ لِلْقَضِيب قلادةٌ فى جيدِهِ (١)

والياسَمِينُ كعاشقٍ قَدْ شَفَّهُ ... جَوْرُ الحَبِيبِ بِهَجْرِهِ وَصُدُودِهِ (٢)

وانظُرْ لِنَرْجِسِهِ الشَّهِىِّ كأنَّهُ ... طَرْفٌ تَنَبَّهَ بَعْدَ طُولِ هُجُودِهِ

واعْجَبْ لِآذَرْيُونِهِ وبَهَارِهِ ... كالتِّبْرِ يَزْهُو بِاخْتِلافِ نُقُودِهِ (٣)

وانظُرْ إلَى المَنْظُومِ مِنْ مَنْثُورِهِ ... مُتَنَوِّعاً بِفُصُولِهِ وعُقُودِهِ (٤)

أوَمَا تَرَى الغَيْمَ الرَّقِيقَ وَمَا بَدَا ... لِلْعَيْنِ مِنْ أَشْكَالِهِ وطُرُودِهِ (٥)

والسُّحْبُ تَعْقِدُ فِى السَّماءِ مَآتِماً ... وَالأَرْضُ فِى عُرْسِ الزَّمَانِ وعِيدِهِ

نَدَبَتْ فَشَقَّ لَهَا الشَّقِيقُ جُيُوبَهُ ... وازْرَقَّ سَوْسَنُهَا لِلَطْمِ خُدُودِهِ (٦)

والمـــاءُ فِى تَيَّارِ دِجْلَةَ مُطْلَقٌ ... والْجِسْرُ فِى أَصْفَادِهِ وقُيُودِهِ (٧)

والغَيْمُ يَحْكِى المـــاءَ فِى جَرَيانِهِ ... والْماءُ يَحْكِى الْغَيْمَ فِى تَجْعِيدِهِ

فابْكُرْ إلى رَوْضٍ أَنِيقٍ ظِلُّهُ ... فالعيشُ بَيْنَ بَسِيطِهِ ومَدِيدِهِ (٨)

وَإذَا رَأَيْتَ جَدِيدَ رَوْضٍ ناضِرٍ ... فارْشُفْ عَتِيقَ الرَّاحِ فَوْقَ جَدِيدِهِ

مِنْ كَفِّ ذِى هَيَفٍ يُضَاعِفُ خُلْقَهُ ... سُكْرُ المُدَامِ بِشَدْوِهِ وَنَشِيدِهِ (٩)

---

(١) القداح : أطراف النبت الغض . والسمط : العقد والقلادة . والقضيب الغصن .

(٢) شفه : آلمه وأمضه .

(٣) الآذريون والبهار من النبات الطيب الرائحة . والتبر تراب الذهب .

(٤) والمنثور من النبات أى الزهر المشمث الجميل . والمنثور نوع من الزهر .

(٥) الطرود : يبدو أنه يريد عراجينه .

(٦) السوسن : كجوهر زهر برى لطيف .

(٧) الأصفاد : جمع صفد بمعنى وهو الوثاق والقيد .....

(٨) بسيطه ومديده أو واسعه ورخيه . وقد استعمل الشاعر مصطلح العروض بهذين اللفظين فهما من أسماء البحور الشعرية .

(٩) الهيف : بفتحتين ضمر البطن ورقة الخاصرة . ويريد بذى هيف : الساق المغنى .

صَافِي الْأَدِيمِ تَرَى إِذَا شَاهَدْتَهُ تِمْثَالَ شَخْصِكَ فِي صَفَاءِ خُدُودِهِ (١)
وإِذَا بَلَغْتَ مِنَ الْمُدَامَةِ غَايَةً فَاقْلِلْ لِتُذْكِيَ الْفَهْمَ بَعْدَ خُمُودِهِ
إِنَّ الْمُدَامَ إِذَا تَزَايَدَ حَدُّهَا فِي الشُّرْبِ كَانَ النَّقْصُ فِي مَحْدُودِهِ

يوم صيد

هيأت ظروف الحياة لصفى الدين الخروج إلى الأحراج والصيد فى أدغالها ، والنزوح إلى القفار والطرد فى مواميها ، مع الملوك والأمراء . فها هو ذا فى الأبيات التالية يصف أحد أيامه التى قضاها فى صيد النعام ، يقول فى أرجوزة طريفة :

ورُبَّ يَوْمٍ أَدْكَنِ القَتَامِ مُمْتَزَجِ الضِّيَاءِ بالظَّلَامِ (٢)
سِرْنَا بِهِ لِقَنَصِ الآرَامِ والصُّبْحُ قَدْ طَوَّحَ بِاللِّثَامِ (٣)
كَرَاقِدٍ هَبَّ مِنَ المَنَامِ بِضُمَّرٍ طَامِيَةِ الحَوَامِي (٤)
مُعْتَادَةٍ بالكَرِّ والإِقْدَامِ تُحْجِمُ فِي الحَرْبِ عَنِ الإِحْجَامِ
حَتَّى إِذَا آنَ ظُهُورُ الجَامِ والبَرُّ بِالآلِ كَبَحْرٍ طَامِ (٥)
عَنَّ لَنَا سِرْبٌ مِنَ النَّعَامِ مُشْرِقَةِ الأَعْنَاقِ كَالأَعْلَامِ (٦)
فَاغِرَةِ الأَفْوَاهِ لِلْهُيَامِ كَأَيْنُقٍ فَرَّتْ مِنَ الزِّمَامِ
وحشٌ عَلَى مَثْنَى مِنَ الأَقْدَامِ بالطيرِ تُدْعَى وهْيَ كالأَنْعَامِ

---

(١) صافى الأديم : نقى الجلد لا تشوبه شائبة كأنه شفاف .
(٢) أدكن القتام : أسود الغبار .
(٣) القنص : الصيد وحركة وسطه بالفتح للضرورة . والآرام جمع رئم وهو الظبى . واللثام ما يغطى الوجه أو نصفه . وطوح به خلعه . ويعنى أن الصبح أسفر وأزال ظلمة الليل .
(٤) الضمر : الخيل الضامرة النحيلة القادرة على العدو . الطامية : الممتلئة . والحوامى : ميامن الحوافر ومياسرها . ويريد بها قوتها .
(٥) والأعلام : الجبال . والآل : السراب . والطامى الممتلئ .
(٦) عن سرب : بدا قطيع .

تَطِيرُ بِالأَرْجُلِ فِى المَوَامِى كَأَنَّما أَعناقُها السَّوامِى (١)
أَرَاقِمٌ قَدْ قُمْنَ لِلْخِصامِ فَحِينَ هَمَّ السِّرْبُ بانهزامِ (٢)
أَلْجَمَتِ القِسِىُّ بِالسِّهامِ فَأُرْسِلَ النَّبْلُ كَوَبْلٍ هَامِ (٣)
فَعَنَّ رَأْلٌ عارِضٌ أَمَامِى كَأَنَّهُ دُرِّعَ بِالظَّلامِ (٤)
نِيطَتْ جَناحَاهُ بِعُنُقٍ سامِ كَأَنَّها مِنْ حُسْنِ الالتئامِ (٥)
هاهُ شَقِيقٍ وُصِلَتْ بِلامِ عارَضْتُهُ تَحْتَ العَجَاجِ السَّامِى (٦)
بِسَابِقٍ يَنْقَضُّ كَالْقَطَامِ خِلْوِ العِنَانِ مُفْعَمِ الحِزَامِ (٧)
يَكادُ يُلْوِى حَلَقَ اللِّجَامِ ذِى كَفَلٍ رَابٍ وَشَدْقٍ دَامِ (٨)
وَصَفْحَةٍ رَيَّا وَرُسْغٍ ظَامِ فَحِينَ وَافَى عَارِضاً قُدَّامِى (٩)
أَثْبَتُّ فِى كَلْكَلِهِ سِهَامِى فَمَرَقَتْ فِى اللَّحْمِ وَالْعِظَامِ (١٠)
فَخَرَّ مَعْرُوعاً عَلَى الرَّغَامِ قَدْ سَاقَهُ الْخَوْفُ إِلَى الحِمَامِ (١١)

---

(١) الموامى : جمع موماة وهى الفلاة المقفرة المخوفة . والسوامى : المرتفعة .

(٢) قوله : أراقم : مشبه به للأعناق ، والأراقم أخبث الحيات جمع أرقم والأنثى رقشاء .

(٣) الوبل الهامى : المطر المنصب .

(٤) الرأل ولد النعام أو حوليه أى الذى مر عليه عام . والأنثى رألة . وقوله : درع بالظلام أى لبس فى صدره درعاً من الظلام وذلك لسواد صدره .

(٥) نيطت : علقت .

(٦) الشقيق : نبت منه الأحمر والأصفر . والشاعر هنا يشبه عنق ولد النعام فى طولها واستدارة طرفها باللام الموصولة بالهاء ، فى الاحمرار بالشقيق . والعجاج السامى : الغبار المرتفع .

(٧) السابق : الفرس . وينقض : يهبط فجأة . والقطام : والقطامى الصقر ، ويبدو أن وجه الشبه هو سرعة الانقضاض وحدة البصر أيضاً .

(٨) الكفل الرابى : العجز الممتلىء .

(٩) صفحة ريا : مليئة بضة ، ويبدو أنه يريد صفحة وجهه أو عنقه . والرسغ ما فوق الحافر مما يربط به الفرس ونحوه . والمراد بظامى أنه ضيق ، وأصله ظامئ سهلت همزته .

(١٠) الكلكل : الصدر .

(١١) الرغام : التراب . والحمام : الموت .

فأعجبَ الصَّحْبَ به اهتمامى حتى اغْتَدَى كلٌّ مِنَ الأقوام
يَقُولُ لاَ شُلَّتْ يَمِينُ الرَّامِي(١)

خمرية

خريات صفى الدين ضرب من الوصف قوامه الغزل . فهو يتخذ الخمر موضعاً لغزله فيصفها كما لو وصف إنسانة معشوقة ، ملكت نفسه وتيمت قلبه . وفى خلال وصفه يسبغ عليها ما يسبغ عادة على المعشوقة من النعوت ، ونقتطف لك الأبيات الآتية من إحدى خمرياته ، نموذجاً لغيرها . قال :

عَجِبْتُ لَهَا تُمْسِي العُقُولُ لَهَا نَهْبَا وَتَسْبِى النَّدَامَى وَهْىَ مَا بَيْنَهُمْ تُسْبَى
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا أَنَّهَا كُلَّمَا طَغَتْ عَلَى العَقْلِ زَادَ الشَّارِبُونَ لَهَا حُبَّا
سُلَافٌ تُمِيتُ العَقْلَ فِى حَالِ شُرْبِهَا وَتُنْعِشُ منها الروحَ والجسمَ والقَلْبَا
معَتَّقَةٌ أَفْنَى الجَـــدِيدُ عَتِيقَها وَأَبْقَى صَمِيماً مِنْ حُشَاشَتِها لُبَّا
مُحَجَّبَةٌ وَسْطَ الدِّنَانِ وَنُورُهَا يُخَرِّقُ مِنْ لأْلاَءِ غُرَّتِهَا الْحُجْبَا(٢)
كُمَيْتٌ إِذَا شَاهَدْتَهَا فى إِنَائِهَا وَلَكِنْ لِصَافِى لَوْنِهَا دُعِيَتْ صَهْبَا(٣)
إِذَا مَسَّهَا وَقْعُ المِزَاجِ تَأَلَّمَتْ وَأَزْبَدَ مِنْهَا الثَّغْرُ وَامْتَلأَتْ رُعْبَا(٤)
وَأَعْجَبُ مِنْ بِكْرٍ لَهَا الْمَاءُ وَالِدٌ وَتَرْجِـعُ أَنَّى رَامَ تَقْبِيلَهَا غَضَبَى
عَجُوزٌ إِذَا مَا أُبْرِزَتْ مِنْ حِجَابِهَا تُرِيكَ نَشَاطاً كَالْغُلاَمِ إِذَا شَبَّا
هِىَ الشَّمْسُ إِلاَّ أَنَّهَا فى شُرُوقِهَا إِذَا مُزِجَتْ فى كَأْسِهَا أَطْلَعَتْ شُهْبَا(٥)

---

(١) لا شلت : لا أصيبت بالشلل ، وهو دعاء له .
(٢) الدنان : جمع دن وهو إناء وراقود كبير للخمر .
(٣) الكميت : الخمر وذلك لاحمرار لونها واسوداده . والصهبا : مقصور صهباء لضرورة الوزن ، وهى الخمر أو المعصورة من عنب أبيض ، اسم لها كالعلم . والصهب حمرة أو شقرة فى الشعر .
(٤) المزاج : خلطها بالماء . وهو يثيرها فتحدث فقاقيع وحباباً يتناثر وفوقه زبد .
(٥) أطلعت شهبا : أخرجت وتناثر منها هذه القطرات اللامعة الشبيهة بالشهب وهى الشعل .

إذا جُلِّيَتْ فى كَأْسِهَا وَتَبَرَّجَتْ ... وَزَادَتْ نُفُوسُ الْوَامِقِينَ بِهَا عُجْبَا(١)

يَعَضُّ عَلَيْهَا التَّائِبُونَ بَنَانَهُمْ ... وَيَنْدُبُ كُلٌّ مِنْهُمُ عَقْلَهُ نَدْبَا

إِذَا مَا حَسَوْنَاهَا أَقَرُّوا بِأَنَّهُمْ ... قَدْ ارْتَكَبُوا فى تَرْكِهَا مَرْكَباً صَعْبَا

وَلَمْ أَرَ حَبْراً تَابَ عَنْ نَفْعِ نَفْسِهِ ... فَلِلَّهِ مَا أَعْمَى الْجَهُولَ وَمَا أَغْبَى(٢)

فَهَيَّا بِنَا نَحْوَ الصَّبُوحِ وَبَرْدِهَا ... فَإِنِّى لَيُرْضِينِي النَّدِيمُ إِذَا هَبَّا(٣)

وَعُوجَا بِنَا نَسْتَمْطِرِ الدَّنَّ غُدْوَةً ... إِذَا عَاجَتِ الأَغْمَارُ تَسْتَمْطِرُ السُّحْبَا(٤)

وَوَاصِلْ صَبُوحِى بِالغَبُوقِ وَعِلَّنِي ... بِهَا كُلَّ يَوْمٍ لاَ تَذَرْ شُرْبَهَا غِبَّا(٥)

فَإِنَّ قَتِيلَ الرَّاحِ يُوشِكُ بَعْثُهُ ... إِذَا أَنْتَ أَتْرَعْتَ الْكُئُوسَ لَهُ سَكْبَا

إِذَا نَفَخَتْ مِنْ رُوحِهَا فِيهِ نَفْخَةً ... تَمَثَّلَ حَيًّا بَعْدَ أَنْ قَدْ قَضَى نَحْبَا

---

(١) تبرجت : ازدانت كالأنثى . والوامقون : المحبون .

(٢) الحبر : العالم ورجل الدين من النصارى . وفى الشطر الثانى تعجبان .

(٣) الصبوح : خمر الصباح .

(٤) عوجا : مرا وعرجا . نستمطر الدن : نطلب منه أن يمطرنا خمراً . والغدوة الصباح الباكر . والأغمار : الجاهلون جمع غمر .

(٥) الغبوق : شراب العشى . علنى : اسقنى بعد المرة الأولى . ونهل : شرب أول مرة ، وعلّ شرب بعد ذلك . والغب : الانقطاع عن الشىء مرة ثم الرجوع إليه .

مدحة نبوية

وفى فحولة وقوة ، وفى جزالة ووضوح ، وفى محبة وتعظيم وأدب ، يمدح صفى الدين رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويشيد ببعض صفاته الكريمة ، مما ردد من قبله مداح الرسول ولا سيما شرف الدين البوصيرى ، ومما سطره بعض كتب السيرة .

وهذه المدحة النبوية طويلة النفس غزيرة المادة كثيرة الأبيات ، تبلغ نحو تسعين بيتاً . قال صفى الدين منها يتحدث عن نفسه ومغامراته ، ثم ينتقل إلى وصف النوق فإلى المديح :

وَقَدْ أَرْتَدِى ثَوْبَ الظَّلَامِ بِجَسْرَةٍ ... عَلَيْهَا مِنَ الشُّوسِ الْحُمَاةِ جَسُورُهَا (١)

كَأَنِّى بِأَحْشَاءِ السَّبَاسِبِ خَاطِرٌ ... فَمَا وُجِدَتْ إِلَّا وَشَخْصِى ضَمِيرُهَا (٢)

وَصَادِيَةِ الْأَحْشَاءِ غَضَّى بِآلِهَا ... يَعِزُّ عَلَى الشِّعْرَى الْعَبُورِ عُبُورُهَا (٣)

يَنُوحُ بِهَا الْخِرِّيتُ نَدْباً لِنَفْسِهِ ... إِذَا اخْتَلَفَتْ حَصْبَاؤُهَا وصُخُورُهَا (٤)

إِذَا وَطِأَتْهَا الشَّمْسُ سَالَ لُعَابُهَا ... وَإِنْ سَلَكَتْهَا الرِّيحُ طَالَ هَدِيرُهَا (٥)

خَبَرْتُ مَرَامِى أَرْضِهَا فَقَتَلْتُهَا ... وَمَا يَقْتُلُ الْأَرْضِينَ إِلَّا خَبِيرُهَا (٦)

بِخَطْوَةِ مِرْقَالٍ أَمُونٍ عِثَارُهَا ... كَثِيرٍ عَلَى وَفْقِ الصَّوَابِ عُثُورُهَا (٧)

---

(١) الجسرة : العظيمة من النوق . والشوس : جمع أشوس وهو الذى يصغر عينيه ويضم أجفانه للنظر ، وأيضاً من ينظر بمؤخرة العين تكبراً أو تغيظاً . والحماة : المحامون . والجسور : الشجاع المغامر . والشاعر يريد نفسه بالشطر الثانى .

(٢) السباسب : جمع سبسب بفتح السينين وهو المفازة أو الأرض البعيدة المستوية .

(٣) وصادية الأحشاء : أى رب صادية وهى الظامئة . وهو وصف للصحراء .
والآل : السراب . والشعرى : نجم ، ويقال الشعرى العبور والشعرى الغميصاء ، أختا سهيل ، وهو نجم آخر .

(٤) الخريت : المرشد والدليل الحاذق .

(٥) الهدير : صوت البعير ، وهنا نسبه للصحراء .

(٦) المرامى : جمع مرمى وهو مكان الرمى ويريد نواحيها . وقتلها كناية عن التغلب عليها والوصول إليها .

(٧) المرقال : الناقة المسرعة . والأمون : التى يؤمن معها العثار أى الزلل والسقوط . والعثور بضم أوله البلوغ والوصول وعثر عليه وجده .

أَلَذُّ مِنَ الْأَنْغَامِ رَجْعُ بُغَامِهَا ... وَأَطْيَبُ مِنْ سَجْعِ الْهَدِيلِ هَدِيرُهَا (١)

نُسَاهِمُ شَطْرَ الْعَيْشِ عِيساً سَوَاهِماً ... لِقَرْطِ الْأَسَى لَمْ يَبْقَ إِلَّا شُطُورُهَا (٢)

حُرُوفاً كَنُونَاتِ الصَّحَائِفِ أَصْبَحَتْ ... تُخَطُّ عَلَى طِرْسِ الْفَيَافِي سُطُورُهَا (٣)

إِذَا نُظِمَتْ نَظْمَ الْقَلَائِدِ فِي البُرَى ... تَقَلَّدَهَا خَصْرُ الرُّبَا وَنُحُورُهَا (٤)

طَوَاهَا طَوَاهَا فَاغْتَدَتْ وَبُطُونُهَا ... تَجُولُ عَلَيْهَا كَالْوِشَاحِ ظُفُورُهَا (٥)

يُعَبِّرُ عَنْ فَرْطِ الْحَنِينِ أَنِينُهَا ... وَيُعْرِبُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ ضُمُورُهَا (٦)

نَسِيرُ بِهَا نَحْوَ الْحِجَازِ وَقَصْدُهَا ... مَلَاعِبُ شُعْبَى بَابُهَا وَقُصُورُهَا (٧)

فَلَمَّا تَرَامَتْ عَنْ زَرُودٍ وَرَمْلِهَا ... وَلَاحَتْ لَهَا أَعْلَامُ نَجْدٍ وَقُورُهَا (٨)

وَصَدَّتْ يَمِيناً عَنْ شَمِيطٍ وَجَاوَزَتْ ... رُبَا قَطَنٍ وَالشُّهْبُ قَدْ شَفَّ نُورُهَا (٩)

---

(١) الرجع : ترديد الصوت . والبغام : صوت الظبية والناقة . يقال : بغمت الظبية بغاماً صاحت إلى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها . وبغمت الناقة قطعت الحنين ولم تمده . والهديل : صوت الحمام أو خاص بوحشيها ، واسم لذكر الحمام أو فرخها .

(٢) نساهم : نشارك . وشطر العيش جانبه وجزؤه ونصفه ، ويريد به العيش . والعيس : جمع عيساء وهي الناقة البيضاء تخالطها شقرة . والسواهم جمع ساهمة وهي الناقة الضامرة . وفرط الأسى شدته .

(٣) حروف : جمع حرف وهي الناقة الضامرة أو المهزولة ، أو العظيمة . والمعنيان الأولان أنسب هنا . نونات الصحائف : حروف النون . والتشبيه للتقوس . وكلمة الصحائف هنا قرينة ، والنون أيضاً الحوت وهو غير مقصود هنا . وجمعه نينان وأنوان . والطرس : الصحيفة . والفيافي جمع فيفاء وهي الصحراء والمفازة لا ماء فيها .

(٤) البرى : بفتحتين التراب .

(٥) الطوى : الجوع ، وطواها بمعنى آلمها وأهزلها . والظفور : لحمها جمع ظفر وهي جليدة تغشى العين . وجعلها للبطون تشبيهاً .

(٦) الضمور : الهزال وضآلة الجسد .

(٧) شعبى : موضع . وسكنت العين المفتوحة للضرورة .

(٨) زرود : مكان . والقور : جمع قارة بغير تشديد ، وهي الجبيل المنقطع عن الجبال . أو الصخرة العظيمة أو الأرض ذات الحجارة السود .

(٩) الشميط : الذي اختلط بياضه بظلام ، ويبدو أنه موضع — وقطن : جبل بنجد في بلاد بني أسد . وشف نورها . رق وقل .

وَعاجَ بِهَا عَنْ رَمْلِ عاجٍ دَلِيلُها ... فَقامَتْ لِعِرْفانِ المُرادِ صُدُورُهَا(١)

غَدَتْ تَتَقاضَانا المَسِيرَ لِأَنَّها ... إِلَى نَحْوِ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ مَسِيرُها(٢)

تَرُضُّ الحَصَى شَوْقاً لِمَنْ سَبَّحَ الْحَصَى ... لَدَيْهِ وَحَيَّا بِالسَّلامِ بَعِيرُهَا(٣)

إِلَى خَيْرِ مَبْعُوثٍ إِلَى خيرِ أُمَّةٍ ... إِلى خيرِ مَعْبُودٍ دَعاها بَشِيرُها

وَمَنْ أُخْمِدَتْ مَعْ وضْعِهِ نارُ فارِسٍ ... وَزُلْزِلَ مِنْها عَرْشُها وسَرِيرُها

وَمَنْ نَطَقَتْ تَوْرَاةُ مُوسَى بِفَضْلِهِ ... وَجَاءَ بِهِ إِنجِيلُهـا وَزَبُورُها

وَمَنْ بَشَّرَ اللهُ الأَنامَ بِأَنَّهُ ... مُبَشِّرُها عَنْ دِينِهِ ونَذِيرُها

مُحَمَّدُ خَيْرُ المرسلينَ بِأَسْرِهَا ... وَأَوَّلُهَا فِي الْفَضْلِ وَهْوَ أَخِيرُها

أَيا آيَةَ اللهِ الَّتِي مُذْ تَبَلَّجَتْ ... عَلَى خَلْقِهِ أَخْفَى الضَّلالَ ظُهُورُهَا(٤)

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ يا خَيْرَ مُرْسَلٍ ... إِلَى أُمَّةٍ لَوْلاهُ دَامَ غُـرُورُها

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ يا خيرَ شافِعٍ ... إِذا النّارُ صَمَّ الكافرينَ حَصِيرُها(٥)

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ يامَنْ تَشَرَّفَتْ ... بِهِ الإِنْسُ طُرًّا واسْتَتَمَّ سُرُورُها

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ يا مَنْ تَعَبَّدَتْ ... لهُ الجِنُّ وَانْقادَتْ إِلَيهِ أُمُورُها

تَشَرَّفَتِ الأَقْدَامُ لَمَّا تَتابَعَتْ ... إِلَيكَ خُطاها وَاسْتَمَرَّ مَرِيرُها(٦)

وفَاخَرَتِ الأَفْوَاهُ نُورَ عُيُونِهـا ... بِتُرْبِكَ لَمَّا قَبَّلَتْهُ ثُغُورُهَا

وَلَوْ وَفَتِ الوُفَّادُ قَدْرَكَ حَقَّهُ ... لَكانَ عَلَى الأَحداقِ مِنْها مَسِيرُها

---

(١) عاج بها : عاد بها أو مر بها . وعاج : واد ويقال له ذو عاج .

(٢) تتقاضانا : تطلب منا .

(٣) ترض : تدق .

(٤) تبلجت : تكشفت وظهرت وعلت .

(٥) الحصير : الضيق والحبس .

(٦) مريرها : عزيمتها .

المراجع

١ — صفى الدين الحلى : ديوان صفى الدين الحلى فى طبعاته الثلاث ولا سيما طبعة النجف الأشرف عام ١٩٥٦ م وبها مقدمة منقولة عن كتاب « البابليات » للشيخ محمد على اليعقوبى عميد جمعية الرابطة الأدبية فى النجف وقد روى هو عن بعض من تقدموه .

٢ — ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ج ٢

٣ — ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ج ١

٤ — الصلاح الصفدى : الوافى بالوفيات

٥ — ابو المحاسن بن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ٢

٦ — ابن حجة الحموى : خزانة الأدب

٧ — زكى مبارك : المدائح النبوية

٨ — أحمد السكندرى : الأدب العباسى

٩ — ابن خلدون : العبر ج ٦

١٠ — عماد الدين الأصفهانى : دولة آل سلجوق — اختصار الفتح البندارى

١١ — صدر الدين أبو الحسن : أخبار الدولة السلجوقية

١٢ — الصابونى : تاريخ حماة

١٣ — المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة

١٤ — محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك مجلد ١، ٢، ٣

١٥ — جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣

obeikandl.com